أنور الجندي

من أعلام الحرية

في العالم العربي الحديث

اقرأ ٢٥٤
دار المعارف

اقرأ ٢٥٤ – فبراير ١٩٦٤

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.ع.م.

الى الاستاذ العلامة
والكاتب
الاستاذ [illegible]
مع خالص
المحبة والتقدير

[illegible]
١٩٦٤/٤/١٢

من أعلام الحرّية

في العالم العربي الحديث

تصدير

بسم الله ؛ وفى هذه المرحلة التاريخية الدقيقة من حياة الأمة العربية حيث تنصهر القوى فى بوتقة الوحدة تجدنا فى أشد الحاجة إلى مراجعة تاريخ أعلامنا فى مجال الحرية . هذا التاريخ الذى يكشف لنا عن عظمة هؤلاء الرواد الأبطال الذين قادوا كفاحنا أمام الغاصبين . وقدموا بحياتهم واستشهادهم مثلا عالياً وصورة رائعة للبطولة والفداء .

كانت الأمة العربية تمر بمرحلة كفاح طويلة منذ بدأ الغزو الاستعمارى والنفوذ الغربى يأخذ طريقه إلى وطننا الكبير ، حيث بدأت مصر والجزائر تسقطان تحت سلطان القوى الضخمة الطامعة فى السيطرة على هذا الوطن .

منذ ذلك اليوم ظهر عديد من الرجال الأبطال المناضلين المكافحين بالسيف والقلم فى مختلف أنحاء الوطن العربى . . . هؤلاء الذين برزوا إلى مقدمة الصفوف وقادوا شعوبهم إلى الجلاء والكفاح .

من بين هؤلاء الأعلام فى مجال الدعوة إلى الحرية ظهر فى مصر : محمد كريم ، وحسن طوبار ، ومحمد عبيد ، وإبراهيم اللقانى ، ومصطفى الوكيل ، وعبد الرحمن فهمى .

وظهر فى الجزائر : عبد القادر الجزائرى .

وفى السودان : على عبد اللطيف .
وفى ليبيا : عمر المختار .
وفى الشام : يوسف العظمة ، وإبراهيم هنانو .
وفى العراق : صلاح الصباغ .
وفى فلسطين : عبد القادر الحسينى .

وليس هؤلاء إلا نماذج لمجاهدين كثيرين ، ظهروا فى خلال هذه الفترة منذ جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر مؤذنة بطلائع الغزو الاستعمارى للأمة العربية .

فى ظل هذا العدوان والغزو ظهر هؤلاء الأعلام ووقفوا يقودون شباب أمتهم إلى كفاح ضخم مرير؛ ومن هذه المرحلة بدأ الكفاح الذى لم يتوقف : الكفاح فى سبيل أول هدف من أهداف الأمة العربية : « الحرية ».

إن علينا اليوم أن نذكر هذه النماذج من الأبطال الشهداء الأبرار الذين سجلوا صفحة باهرة ناصعة فى سفر النضال الشريف ؛ هؤلاء بعض الذين أضاءوا الطريق بإيمانهم وتضحيتهم ، لقد كانوا بمثابة الأعلام الهادية على الطريق الطويل فى المرحلة الشاقة العسرة .

كان كفاح هؤلاء فى سبيل الحرية مقدمة لكفاح آخر فى سبيل « الوحدة » ، وهو ما نرجو أن نقدم له مجموعة أخرى من نماذج أعلامه . . .

الهرم — ديسمبر ١٩٦٣ « أنور الجندى »

عبد السلام المويلحى

« أول صوت ارتفع ضد الاستبداد »

١٨٤٧

« إنا هنا سلطة الأمة ولن نخرج إلا على
أسنة الرماح »

تلميذ جمال الدين ، وواحد من هذه الصفوة التى علمها الأفغانى العملاق كيف تنقل السلطة إلى الشعب ، وتدوى ألسنتها بكلمة الحق فى وجه الاستبداد على صفحات الصحف وفى جنبات مجلس شورى النواب ، رفيق محمد عبده وإبراهيم اللقانى وأديب إسحاق .

وكان إسماعيل فى أخريات أيامه عندما اشتد عليه ضغط الدول الأوربية قد حاول أن يتخذ من تأسيس مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦ ذريعة لمقاومة هذا النفوذ ، وكان يهدف إلى إنشاء مجلس صورى يحمل لواء رأيه ، غير أن هذا المجلس لم يلبث أن عرف طريق « شرف الكلمة » بعد سنوات قليلة من إنشائه ، فإذا به يجابه رئيس النظار « دولتلو رياض باشا » بعنف ويهاجمه ، ويرد عليه عباراته على نحو يدهش له المراقبون والمؤرخون الأوربيون ، وذلك بفضل زعامة « عبد السلام المويلحى » لجبهة

المعارضة فى المجلس وجرأته فى إعلاء كلمة الحق . وكان عبد السلام واحداً من أبناء بيت المويلحى الشهير الذى عرف بأنه بيت سر تجار القاهرة الذين سيطروا على التجارة فى مصر والحجاز سنوات طويلة وأصهروا إلى بيت البكرى الذى ظل يحمل أفراده لقب نقيب الأشراف عهداً طويلا . وكان الخديو إسماعيل وليًّا لنعمة آل المويلحى وصاحب الفضل على عبد السلام المويلحى وشقيقه إبراهيم المويلحى الكاتب البليغ وصاحب جريدة « مصباح الشرق » . ولكن هذا لم يمنع عبد السلام من أن يقول كلمة الحق ويجهر بها من فوق منبر مجلس شورى النواب ضد إسماعيل وحكومته ، وهو نائب القاهرة فى هذا المجلس .

وكان مجلس شورى النواب يجتمع فى أحد قصور قلعة المقطم وكان دور انعقاده شهرين فى كل عام ، وكان عمل النواب فيه — أول الأمر — مقصوراً على تناول طعام العشاء . وقد ظلت الأمور على هذا النحو حتى عام ١٨٧٨ ، عند ما وقف عبد السلام المويلحى ليقول لرئيس النظار :

« إن القانون الخاص بالشئون المالية لم يعرض على المجلس مع أن سائر ما يختص بالإدارة العمومية من تحصيل أموال وفرض ضرائب ووضع لوائح أو قوانين إنما يقصد به الأهالى ، وكل ما يقصد به الأهالى لا بد من عرضه عليهم ، ولا بد من رضاهم عنه عن طيب خاطر قبل وضعه وتكليفهم به . وحيث إنهم

أنابوا عن أنفسهم نواباً فهم منوطون بالموافقة عنهم والمحاماة عن حقوقهم ، فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بالأهالى على نوابهم ، لينظروا فيه ويتدبروه .

« ومثل رئيس مجلس النظار لا يجهل حقوق مجلس النواب ومقدار احترامها ، كما لا ينكر أن مثل هذا القانون هو من حقوق ذلك المجلس المقدسة التى لا يصح انتهاكها » .

وكان معنى هذا أن المجلس انتقل إلى عهد جديد من حرية الرأى ، عندئذ أشار الوزيران الأجنبيان فى الوزارة (أحدهما فرنسى والآخر بريطانى) على رياض باشا رئيس النظار بحل المجلس .

وواجهه عبد السلام المويلحى ومعه زملاؤه النواب بعاصفة من السجال العنيف ، وقال الكلمة التاريخية : إنا هنا سلطة الأمة ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب .

وكان رياض قد اتصل بأصحاب الصحف وحذرهم من الكتابة فى مصلحة النواب ناعتاً إياهم بأنهم « هؤلاء الهمج » .

وأصر عبد السلام المويلحى أن يسجل فى محضر الجلسة كل ما دار من عبارات ، واتفق مع النواب على أن يظل المجلس منعقداً بصفة مستمرة ليل نهار حتى تستقيل الوزارة .

ولم يقف عند هذا الحد ، بل إنه كتب فى صحيفة « التجارة » التى يحررها أديب إسحاق وسليم نقاش عدة مقالات نارية تحت عنوان «خواطر» جاء فيها بتاريخ ٢٤ يونيه سنة ١٨٧٩ :

« ورد فى قرار تشكيل الوزارة أن الوزراء مسئولون . ولكن ما هى هذه المسئولية . ومن هو السائل . وما هى القوانين المنبهة لوظائف الوزراء، المظهرة لعلاقاتهم ، المعينة لتكاليفهم ، المحددة لواجباتهم ، المعرفة لحقوقهم ؛ وعند أى حد تقف سطوتهم ، وفى أى الأحوال يكونون مذنبين . فإنه حيث لا تكون هذه القوانين فلا وجود للواجبات ولا الحقوق . وبالإضافة لا وجود للمسئولية ؛ فلا بد والحالة هذه أن يكون مجلس الشيوخ والنواب هو السائل وأن تضع حكومتنا قانوناً بهذه المسائل » .

وهذه صورة ما دار فى جلسة المجلس التاريخية مما يكشف الستار عن قوة وطنية جديدة يتزعمها المويلحى :

« فى ٢٧ مارس ١٧٨٩ انعقد مجلس شورى النواب تحت رئاسة المرحوم أحمد رشيد باشا ودخل (عطوفتلو أفندم رياض باشا ناظر الداخلية) شرف الجلسة يحمل أمراً عالياً سيتفضل بتلاوته على حضراتكم .

(وبعد أن تلا الأمر العالى بانهاء الدوره شكر أعضاء المجلس) وهنا وقف عبد السلام المويلحى وقال :

المويلحى : لا أرى معنى لتشكرات الحكومة فإننا لم نقم بعمل إلى الآن يكون له ولو شبه فائدة قد عادت أو ستعود على البلاد ، فما هى المآثر التى سنتركها وراءنا لتشكرنا عليها الحكومة فيما لو فرضنا المستحيل وانفض المجلس ؟

رياض : مستحيل ينفض المجلس ؟! ماذا تقول

حضرتك ؟ مستحيل فض المجلس ؟ كيف يكون فض المجلس مستحيلا بعد أمر خديوينا المعظم ؟

هل حضرتكم فاهم جيداً قيمة مسئولية ما تقوله الآن ؟!

المويلحى : نعم ؛أنا فاهم وفاهم جداً ما قلته ومقدر مسئولية ما أقوله تماماً .

رياض : هل حضرتك تتكلم عن نفسك فقط . . . وهل إخوانك يوافقونك على هذا الكلام ؟ ! ما أظن أن حضراتهم يوافقونكم على ذلك مطلقاً .

محمود العطار سر تجار مصر : موافقون البك المويلحى على ما قاله .

عثمان غزالى : أنا والله أوافق المويلحى بجوارحى .

عبد الشهيد بطرس : أوافق عبد السلام المويلحى على ما قاله وسيقوله مقدماً .

المويلحى : حلمك يا باشا لا تغضب سريعاً . والآن الحمد لله قد ظهر لعطوفتك موافقة إخوانى لأقوالى وهم يعرفون كلهم مقدار المسئولية التى قلت عنها عطوفتك ويقدرونها حق قدرها .

فاعلم ياعطوفة الناظر أن من الغريب أن تحمل لنا أمراً عالياً اليوم يقضى بفض المجلس، وهذا الأمر العالى مبنى على غلطة جوهرية فاضحة لأنها فى الواقع مغالطة مزرية من الحكومة السنية لمجلس نواب أمتها وهى : كيف جاز للحكومة أن تبنى الأمر العالى بفض المجلس على أن مدة انعقاده — وهى ثلاث

سنوات — قد انتهت : ولم يمض على الحكومة ثلاث سنوات .

رياض : أما حساب عجيب وغريب يا حضرة النائب ... يعنى حضرتكم تقلدون نواب فرنسا الذين ثاروا على حكومتهم ؟ يعنى حضراتكم الآن بعمائمكم وجببكم مثل نواب أوربا وأمريكا .

أحمد العويسى : يا باشا أنت الآن شتمتنا . . . ماهذا الكلام ؟ . . يعنى عطوفتك شتمت نواب أمتك التى تعطيك أنت وغيرك مرتباتكم الشهرية .

عبد الشهيد بطرس : أنا أعتبر هذه العبارة إهانة من ناظر الداخلية للمجلس وأطلب إثباتها فى المحضر ، وأقول لعطوفتك : إن كلامك هذا وقاحة ، وإن المجلس لا يقبل هذه الوقاحة من ناظر الداخلية بل يردها عليه .

أحمد الصوفانى : أوافق العضو على رد هذه الإهانة للناظر وأطلب من المجلس أن ينظرها فيما بعد ليحاسب عطوفته . إن فى البلاد أمة حية ولها نواب يدافعون عن كرامتها .

المويلحى : أسمعت يا باشا ؟ أرأيت عاقبة تسرع عطوفتك فى الكلام وعدم ضبطك لعواطفك ؟ اعلم أن المسألة ليست مسألة زى وثياب ، بل المسألة مسألة نواب لهم عقول تفهم جيداً رغائب الأمة التى أنابتهم عنها ، واعلم يا باشا أن أهل وطنك ليسوا بأقل شعوراً بما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات مثل الأمم الأخرى التى هى فى الواقع أقل منا كثيراً فى المكانة

المالية والعمرانية . . . ثم ثق إن كنت تعتقد أن مصر لم تتمخض ولم تلد سوى عطوفتك منذ عهد رمسيس إلى الآن . . . أنك غلطان جداً وألف غلطان يا باشا . . . ألم يكن من العيب الكبير وأنت وزير وزارة يزاملك فيها وزير إنجليزى وآخر فرنسوى ، وهما فى الحقيقة خفيران عليكم وعلى الحكومة ثم تجمع أمس مساء أمام هذين الوزيرين الأجنبيين أصحاب الجرائد وهم ميخائيل عبد السيد وتقلا وأديب إسحاق وسليم النقاش وغيرهم وتقول لهم : إن الحكومة عزمت على فض مجلس شورى النواب غداً ، فالحذر كل الحذر من أن تنشروا كلمة واحدة على هؤلاء النواب فى جرائدكم لأنهم ناس جهلاء وهمج .

تقول ذلك يا باشا عن نواب بلادك مصر العزيزة ولا تزن قولك قبل صدوره منك ولا تتألم فى نجواك من صدوره عنك ثم تكرره تقريباً أمامنا اليوم . إننا جميعاً قرأنا فى الأزهر الشريف وفى غيره المنقول جميعه من علوم البلاغة والأدب والفلسفة والأصول والمنطق وكذلك قرأنا المنقول من تفسير وحديث وفقه وتوحيد .

ولكن خبرنى بالله عطوفتك ماذا قرأته وتعلمته أنت من كل ذلك .

الشيخ الصباحى : تعلم ودرس فى أورطة المفروزة .

رياض : هذه وقاحة . هذه إهانة لا أقبلها .

حسن عبد الرازق : إن ما قاله عبد السلام المويلحى

هو إعراب عن أفكارنا ومطابق مطابقة تامة . . . (وقال الأعضاء جميعاً : موافقون . . . موافقون) .

رياض : إذن أنا منسحب » اهـ .

وهم رياض باشا بالقيام منسحباً من قاعة الجلسة قائلا بأعلى صوته : أنتم عصاة . أنتم ثوار . وهنا قال عبد السلام المويلحى لسكرتير المجلس : لا تحذف حرفاً واحداً مما قيل فى كتابة المحضر حتى إذا نقلته الجرائد اليوم علمت الأمة والناس جميعاً من هم الهمج : النظار أم النواب .

ثم طلب المويلحى من هيئة المجلس قراراً باستمرار الجلسة منعقدة ليل نهار فوافق المجلس بالإجماع . واستمر وجود الأعضاء بالمجلس وقاعاته بلا انقطاع ، واتفقوا على أن يكون ثلث الأعضاء بالتناوب يبقى فى المجلس ليلا ويبيت فيه ويحضر بالنهار سائر الأعضاء وتستمر الجلسة منعقدة ، واتفق الأعضاء على إحضار طعام العشاء ليلا لمن كان عليهم الدور من إخوانهم فى المبيت .

وقد كان من نتيجة ذلك أن استقالت الوزارة .

ولما وقع الاحتلال البريطانى وألغى مجلس النواب وأخذ الاستعمار ينشئ مجلساً أطلق عليه (مجلس شورى القوانين) والجمعية العمومية اجتمع مندوبو القاهرة ومن بينهم عبد السلام المويلحى عن الموسكى لانتخاب نائب القاهرة فى مجلس الشورى .

وهنا انبرى عبد السلام فى حدة وقال : أما هذه المرة فإننى

آسف لعدم قبول العضوية وقال : أعتقد أننى لا أستطيع أن أؤدى واجبى وأرضى ضميرى مع وجود الاحتلال، وأعتقد أننى أستطيع أن أخدم بلدى لو أننى أصدر صحيفة بدلا من عضوية المجلس باختصاصاته المبتورة وقانونه الذى يحرم إعادة الرأى فى موضوع حين يعرض ، أما أنا فى الصحيفة فأكتب عن أى أمر أعارضه مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، فالصحيفة أفضل من المجلس المقيد .

* * *

ولد عبد السلام عبد الخالق المويلحى عام ١٨٤٧ ودخل الأزهر وقرأ على الشيوخ الأعلام الأشمونى والسقا والبحراوى وأجيز بالتدريس فى عهد الشيخ مصطفى العروسى قبل تنظيم الإجازات بعقد الامتحانات . ولكن والده توفى فعمل مع أخيه إبراهيم فى تجارة الحرير وصناعته بالتربيعة ، وكانت ثروتهما تقدر بنحو ثمانين ألفاً من الجنيهات ، ثم ضاعت هذه الثروة فى ظروف الاضطراب السياسى ، وقد انقطع شقيقه إبراهيم للأدب والصحافة وانقطع عبد السلام للتجارة حتى أصبح سر تجار القاهرة . ثم انفسح أمامه مجال العمل الوطنى باختياره نائباً عن القاهرة فى مجلس شورى النواب . هنالك تكشفت شخصيته الوطنية التى تأثرت بتعاليم جمال الدين الأفغانى الذى أحبه واستمع إليه وآمن بفكرته .

محمد كريم

(الرجل الذى قاوم الفرنسيين أعنف مقاومة)

١٧٩٨

« قاوموا : اليوم بى وغداً بكم »

كانت كلمته الأخيرة عند ما قاده الفرنسيون إلى المشنقة وهو يشق طريقه فى قلب القاهرة تحوطه شلة من الجنود وفى يده القيود والناس مصطفون على طول الطريق من باب الحديد إلى قصر نابليون فى الأزبكية . . .

وكان يسير بقامته المهيبة متئداً فى وقار ، كأنما يسعى إلى ساحة الشرف لا تبدو على محياه إلا علامات العزم والثقة والإيمان بالله . كان يصرخ فى القاهرة بقوة: قاوموا ، لا تناموا ، اليوم بى وغداً بكم .

وكانت الحملة الفرنسية قد حددت موقفها بالنسبة لحاكم الإسكندرية العظيم الذى واجه الفرنسيين بالحرب الخفية والعلنية منذ وطئت أقدامهم الثغر ، ولم يتوقف عن الجهاد منذ اللحظة الأولى .

كان هو الوجه الأول الذى استقبل البوارج عند ما أوشكت

أن ترسو عند الميناء ، وكان نزول الفرنسيين إلى الإسكندرية يوم ٢ يولية سنة ١٧٩٨ .

وفى خلال ستة عشر عاماً كاملة أجج نار الحقد والخصومة والكراهية لهم فى كل قلب فى محيط يمتد إلى القاهرة .

مضى يسبق الحملة وهى تشق طريقها إلى القاهرة يحرّض أهل البلاد على عدم التعاون مع الفرنسيين . . . ومنع الماء والدواب عنهم ، ومواجهتهم بالحرب والمقاومة فى كل مكان . ومضى يكتل الشباب سرّاً ويدفعه إلى حمل السلاح ، والتصدى للفرنسيين فى كمين وكمين للإدالة بهم ، ولم يدخر فى سبيل ذلك وسعاً ، ووضع ماله كله فى سبيل الغاية ، ولم يعرف الراحة ، وظل يعمل جاهداً على إقلاق هؤلاء المحتلين وتنغيص إقامتهم وتمزيق كل جبهة يحاولون إقامتها .

كان الأسطول الإنجليزى بقيادة « نلسن » قد خرج يبحث عن الأسطول الفرنسى بقيادة « نابليون » الذى اتجه إلى شرق البحر المتوسط ، فوصل نلسن إلى الإسكندرية قبل نابليون . ورأى عمر مكرم عشرة مراكب حربية قد رست بعيداً ولحقت بها خمسة عشر مركباً آخر . هنالك ركب الزورق واتجه إليها يسألها ماذا تريد . فعلم منها بأمر نابليون ، ورفض إمدادها بالماء أو المؤن ، ورد رجاء نلسون فى أن يبقى ليساعد المصريين على مقاومة أسطول فرنسا ، ومنح الأسطول مهلة قصيرة يبرح خلالها المياه المصرية وإلا أطلق عليهم النيران . ولما وجد فيه

« نلسون » إصراراً وعناداً شديدين ، لم يجد بدّاً من أن يبرح باحثاً عن أسطول نابليون فى ميناء آخر . وقال محمد كريم للإنجليز : اذهبوا أنتم ، أما الفرنسيون فإننا سنعرف كيف نقاومهم .

ولم يضيع لحظة واحدة ؛ فقد مضى يفكر فى الخطر الجديد وسارع فى الاتصال بمراد بك وبالعرب المجاورين للثغر طالباً منهم المعونة ، كما بدأ فى تحصين المدينة ودعا الأهالى إلى التعبئة العامة وحمل السلاح .

وما إن وصل نابليون حتى بدأ الرجل مع الصيادين والعمال من وراء حصون الإسكندرية يرد المحتلين عن حمى الوطن . ويتلقى ورجاله نيران المدافع الموجهة إلى صدورهم دون أن يتزحزح عن مكانه . ولكن أنى للبنادق والسيوف والحراب والمدافع القديمة وشظايا الأحجار فى مقاومة أسلحة نابليون الحديثة التى استطاعت أن تدك القلاع والحصون ؟

ولكن محمد كريم لم يستسلم ، فقد بدأ معركة أخرى فى مداخل الإسكندرية لمقاومة قوات نابليون . وان استطاع نابليون أن يهزم الثائرين .

وحمل إلى نابليون الذى حاول إغراءه وكسبه إلى صفه بأن أطلق سراحه ورد إليه سيفه؛ ولكن أنى لمحمد كريم أن يخون وطنه . لقد عاش أيامه يفدى حركة المقاومة بكل قوة ؛ بالأسلحة والمال.. هناك فى الصحراء بعيداً عن العيون ، كان كريم يعمل

دائماً لا يتوقف في سبيل إعداد المجاهدين وتقديمهم إلى صفوف المقاومة والجهاد .

ولم يقف الأمر عند هذا . بل تزعم حركة واسعة فى سبيل المقاومة السلبية عندما عول « نابليون » على احتلال « دمنهور » إذ سرعان ما اختفت دواب الحمل وقرب الماء ، ولم يجد الفرنسيون رجلا واحداً يعاونهم أو يقدم لهم شيئاً .

وكان من نصيب الحملة الهزيمة المحققة والعودة من منتصف الطريق ، وقد وصف الجنرال «ديموى» ما لقيه هو وكتيبته من المشقة والخسائر التى لحقتها ، وكيف نالت من هيبة الجيش الفرنسى فى الإسكندرية .

قال : « لقد منعوا تزويد الكتائب بالمال لأن الأهالى علموا بعزم القيادة الفرنسية على تجريد هذه الكتيبة . فهربوا الجمال لكيلا يستعين بها الفرنسيون . ولقيت القافلة عنتاً ومشقة بعملهم هذا .

فقد هاجم العرب الكتائب ، وكان هذا العدد يزداد كلما تقدمنا فى السير وقد شتتنا هذه الجموع بالرصاص . ولم نفقد سوى قتيل واحد وجريح .

وخيل إلى أن هناك اتصالا بينهم وبين أهالى الإسكندرية وتابعت السفينة سيرها ووصلت إلى دمنهور . وكنا فى خلال هذه المسافة محرومين من الماء حرماناً تاماً . وكان من المستحيل علينا ، ونحن فى الإسكندرية أن نحصل على جمل واحد أو قربة

واحدة لحمل الماء على الرغم من أوامر نابليون . وبلغت بنا الحال أنه فى يوم تحرك الفرقة اختفت الجمال من الإسكندرية ثم عادت إلى الظهور فى شوارع المدينة غداة مسيرنا مما يدل على أن هناك تواطؤاً بين الأهالى وأصحاب الإبل .

ولما دخلت دمنهور لقيت بها تمرداً شديداً ، حيث اجتمع من الأهالى نحو ستة آلاف — معدين للقتال . وقد غصت بهم الطرق والشوارع وتغطت أسطحة المنازل ، فرأى قائد الكتيبة أن من الخطر الاصطدام مع هذه الجموع ، فأخلى دمنهور بعد أن قتل بعض جنوده ، وصدت المدافع الفرنسية هجوم الجموع الثائرة[1] » .

وقال الجنرال ديموى إن مرجع هذا كله إلى عمل محمد كريم الذى كان يحمل نداء المقاومة لهم .

ولم يجد القائد كليبر بداً إزاء الارتياب فى نيات السيد كريم من اتهامه بخيانة القيادة الفرنسية . ورأى نابليون أن يستعيد هيبته فأمر بالقبض عليه فى ٢٠ يولية ١٧٩٨ وبعث به على ظهر السفينة (ديبوا) التى كانت بالإسكندرية حيث كان الأسطول الفرنسى راسياً ، وهناك اعتقل بالبارجة (أوريان) .

واتهمه كليبر بأنه كانت له يد فى المقاومة التى لقيها الجنرال (ديموى) .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية جـ ١ ٨ .

وكان السيد كريم قبيل القبض عليه قد دافع عن أهل المدينة بمناسبة وضع سلفة إجبارية على تجار الثغر يدفعونها للجيش الفرنسى فعارض السيد كريم فى فرض هذه السلفة .

وقد أشار الفرنسيون فى مذكراتهم أنهم أرادوا بإبعاده القضاء على نفوذه الأدبى بين الأهالى .

وقد أرسل « كليبر » يأمر بتكبيله بالحديد و بأن يسد عليه كل منفذ حتى لا يهرب وأن يسجن أتباعه وحاشيته ويرسلوا مخفورين ، كما أمر بأن يعتقل كل من بقى فى منزل السيد محمد كريم . وأن يختم على داره وأملاكه .

وقيل إن أمواله مطمورة فى بئر بالإسكندرية وإن عنده دفتراً فيه بيان أمواله وأملاكه ، وإن بعض خدمه يعرفون مقادير هذه الأموال وموضعها . وكلفه أن يسجن هؤلاء الخدم كل على انفراد وأن يهددوا ليبوحوا بما لديهم من أسرار ، وقال الإنذار : إنه إذا دفع السيد كريم فى خلال ثمانية أيام مبلغ ٣٠٠ ألف فرنك يبقى معتقلا على ظهر إحدى بوارج الأسطول ؛ فإذا لم يدفع ثلث هذا المبلغ على الأقل جرى الأمر بقتله رمياً بالرصاص .

ولم يلبثوا أن أرسلوه إلى القاهرة على ظهر سفينة فوصل إليها فى ١٢ أغسطس فظل مسجوناً رهن التحقيق .

ثم أصدر نابليون أمره فى ٥ سبتمبر ١٧٩٨ بإعدامه رمياً بالرصاص ومصادرة أملاكه وأمواله ، وسمح له أن يفتدى

نفسه بدفع غرامة ثلاثين ألف ريال ، فرفض السيد محمد كريم دفع هذا المبلغ ، وقال له المستشرق فانتوركبير تراجمة الحملة الفرنسية : إنك رجل غنى ، فماذا يضيرك أن تفتدى نفسك بهذا المبلغ ؟

فقال محمد كريم : إذا كان مقدراً على أن أموت فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ . وإذا كان مقدراً لى الحياة فعلام أدفعه . . .

وظل على إصراره إلى أن نفذ عليه الحكم فى ميدان الرميلة يوم ٦ سبتمبر ١٧٩٨ .

ولما قدم للقضاء أظهر جلداً وشجاعة وإيماناً ، وقضى محمد كريم وهو يقاوم . إنه منذ اللحظة الأولى لم ينم ، ولم ينم الفرنسيون عن تتبع كل خطوة يقوم بها ، ولم ينسوا له أنه رفض تسليم المدينة إليهم دون دفاع وأنه قاومهم حتى آخر سهم فى كنانته .

* * *

وكان محمد كريم من العصاميين الذين كونوا أنفسهم . بدأ حياته « قبانياً » يزن البضائع فى الأسواق ، قال الجبرتى : كان قبانياً فى الثغر ، وعنده خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة ، فأحبه الناس ، وقلده مراد بك أمر الديوان ، واستطاع بأمانته أن يصبح موضع التقدير والإعجاب مما لفت الأنظار إليه فعين مديراً للجمارك ثم حاكماً عاماً لمدينة الإسكندرية حتى جاء الفرنسيون وهو موضع حب الناس . ولم ينكص على عقبه ، وفى مثله

غناء كان يستطيع أن يكسب به ود المتسلطين الجدد ليحتفظ بمنصبه ومكانه وماله وجاهه .

ولكن كريم كان كبير النفس مؤمناً بمصر محبًّا لوطنه فرفض كل إغراء وقدم كل ما يملك فى سبيل مقاومة المحتلين ، ومضى يشد أزر المجاهدين ويملأ قلوبهم بالحماسة ويمدهم بالأسلحة والمال حتى ضاق به الفرنسيون وظنوا أنهم يستطيعون بتحطيمه أن يحطموا المقاومة فاعتقلوه ، وأودعوه السجن ثم نقلوه إلى القاهرة حيث حكم عليه بالإعدام بعد محاكمة صورية وجعلوا له أن يفتدى نفسه .

ورفض كريم المساومة وقال : إننى أضحى بنفسى فى سبيل وطنى .

وفى سجنه جرت الرسل بينه وبين نابليون . وفيها إغراء بدفع الفدية طمعاً فى معرفة مكان ماله ، ولكن شيئاً من ذلك لم يرد الرجل عن إيمانه بربه .

ولم تنقطع عنه فى سجنه أصوات أنصاره وأعوانه ، فقد كانوا يحيطون به لايبرحون . كان الشعب كله من وراء محمد كريم ، وحاول الشعب أن يجمع المبلغ الضخم . ولكن الفرنسيين أصروا على أن لا تزيد المهلة على اثنتى عشرة ساعة ، وانقضت المدة وأخرج كريم من سجنه .

يقول : فلما كان قريب الظهر . وقد انقضى الأجل أركبوه حماراً واحتاط به عدد من العسكر وبأيديهم السيوف المسلولة .

ويتقدمهم طبل يضربون عليه . وشقوا به الصليبة إلى أن ذهبوا إلى الرميلة فكتفوه وربطوه مشبوحاً ، وصوبوا عليه البنادق كعادتهم فيمن يقتلونه . ثم قطعوا رأسه ورفعوها على نبوت ، وطافوا بها فى جهات الرميلة والمنادى ينادى : هذا جزاء من يخالف الفرنسيين.

ومات محمد كريم شهيداً ، دون أن يظفر الفرنسيون منه بما كانوا يطمعون يوم ردوا إليه سيفه ودرقته . فقد ظل خصماً عنيداً لهم ما عاش ، ولم يخن بلاده مرة ولم يتوقف عن الكفاح لحظة ، وجعل حياته وماله فداء لوطنه — وهو غير مضطر — وكان فى مقدوره أن يعيش وأن يستظل بالمحتلين ويمشى معهم ولكنه كان كبير القلب .

ولم يمت ثأر محمد كريم ولم يذهب دمه هدراً . فقد ظل يؤجج فى النفس العربية نار الحقد والخصومة لنابليون وجنده حتى حطم كل قاعدة لهم .

ومضى محمد كريم وبقيت كلماته تهدر فى آذان المصريين جميعاً وتدفعهم إلى المقاومة والعمل لتحطيم الحملة الفرنسية . كان صوته يصل إليهم من وراء القبر . قاوموا : اليوم بى وغداً بكم .

واعترف الكتاب الفرنسيون بقسوة إجراء القتل ، وقال « تيبودو » إن إعدام هذا الشريف هو أول عمل من التصرفات العديدة التى وجهت فيها التهم إلى نابليون أثناء حملة مصر . فإن النفوس الحساسة قد تأثرت للخاتمة المحزنة التى انتهت بها حياة ذلك الشريف النزيه الذى أعدم بأمر القائد العام .

حسن طوبار

« الصياد الذى حارب الفرنسيين »

١٨٠٠

« عندما عزم على المقاومة باع أملاكه
وأرسل أهله وأولاده إلى غزة حتى لا يجبن
إزاء المعركة »

كانت الحملة الفرنسية على مصر ، وهى أول حملة استعمارية فى الشرق الحديث ، محركاً لقوة الشعب العربى فى مصر فقد واجه هذه الحملة مواجهة أزعجت الفرنسيين ، ولم تتوقف هذه المقاومة يوماً فى خلال السنوات الثلاث ، كانت نار الثورة تشب فجأة فى مكان بعد آخر ، وإقليم بعد إقليم . . . . وكان الإيمان الصادق بالوطن ، يقاوم الحديد والنار ويتلقى قذائف المدافع ، وطلقات البارود فى قوة دون تراجع أو انسحاب ، بل فى إصرار أكيد على استمرار المقاومة .

وكانت هناك صور شتى رائعة ، ومن أروع هذه الصور كفاح حسن طوبار ، الصياد المصرى الذى جمع خمسمائة مركب من مراكب الصيد وكون أسطولا قاوم به نابليون ومنع تحركاته فى بحيرة المنزلة .

يقول المؤرخ الفرنسى ريبو المرافق للحملة الفرنسية : كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق الرصاص على الفلاحين وفرض الغرامات على البلاد . ولكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس كلما أخمدها السيف والنار فى ناحية ظهرت فى ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى آخر .

إن مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية فأخذت تنتفض وتتجاذب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية ، لقد كنا نرابط فى مصر ونحتلها احتلالا عسكرياً وعلى الرغم مما بذلناه من الجهود ليتقبلنا الشعب ، كما يتقبل محرريه ، فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الإقناع ، وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والعادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسيراً بعيد الاحتمال ، فكانت سياستنا قائمة على إكراه الشعب على الإذعان ، وقمع كل ثورة .

ويقول ريبو : ولما وصلنا بحراً تجاه الجمالية ، وهى قرية كبيرة قوية على الشاطئ الغربى من بحر أشمون ، فوجئت السفن التى كانت تقل الجنود بعاصفة من الأحجار والرصاص انهالت من أسوار البلدة وبيوتها ، وفى الوقت نفسه رأينا جموعاً كبيرة من العرب والمماليك والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصى تهرع من الجهات المجاورة مسرعة إلى مهاجمتنا ، وكان بعضهم راكبين الخيل ، وأكثرهم مشاة ، فدهشنا لهذه الهجمة

العنيفة ، ولكنا لم نؤخذ على غرة . . .

ونزلت الجنود حاملة سلاحها إلى البر الشرقى المقابل للقرية ، وتأهبوا للقتال منتظرين قدوم الأعداء (الأهالى) فرأينا أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم ويهجمون إلى أن يصبحوا فى وسط جنودنا ، وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصى يهاجموننا بحماسة فيستشهدون بين أسنة رماحنا.

وصدر لى الأمر بإطلاق النار عليهم ؛ وفرقنا هذه الجموع بعد أن تركت الميدان مغطى بجثث القتلى ، ولقد تمكن بعضهم أن يعبروا الترعة ثانية ويمتدوا فى الجمالية ، وهى قرية محاطة بالأسوار تحميها ترعة أشمون (البحر الصغير) من جهة ، والمستنقعات التى تغمرها المياه من جهة أخرى ، فأمرنى الجنرال (داماس) أن آخذ القوة الكافية وأستولى عنوة على القرية ، واقتحمنا الباب الكبير رغم مقاومة أهلها الذين دافعوا عنها دفاعاً قوياً فاستولينا على جزء من القرية . ولكن الأهالى ظلوا يدافعون عن الجزء الآخر ممتنعين فى البيوت والشوارع ، وهجم الثوار على القوة التى دخلت القرية . وتمكن جماعة آخرون أن يتسللوا منها فنقلتهم القوة المرابطة حولها ، ونجا منهم من ألقوا بأنفسهم فى المستنقعات وذهبوا سباحة يحملون أسلحتهم [1] » .

وهكذا نجح « حسن طوبار » فى المعركة الأولى مع الفرنسيين ثم واصل العمل فأشعل النار فى المنطقة كلها ضد

---

(١) ترجمة سيد العقاد : مجلة الإذاعة .

هجوم الفرنسيين . حتى إن شيئاً واحداً لم ينسه الفرنسيون بعد جلائهم عن مصر ؛ ذلك هو حسن طوبار ، الصياد فى بحيرة المنزلة الذى قاوم الفرنسيين وعطل تحركاتهم إلى سوريا بما مكن حاكم عكا من تحصينها تحصيناً قوياً رد عنها قوة نابليون مهزومة .

إنه الرجل الذى استطاع بقوة شخصيته أن يجند الصيادين فى هذه المنطقة ويقود مراكبهم ليقف بها فى وجه الحملة الفرنسية . وقد وصف المؤرخ الفرنسى الجنرال ريبو فى مذكراته عن الحملة الفرنسية أهل بحيرة المنزلة بأنهم :

« قوم أشداء ذوو نخوة ولهم جلد وصبر وهم أشد بأساً وقوة من سائر المصريين ، ثم هم أغنياء بما ينالون من الصيد ، ولهم فى البحيرة خمسمائة أو ستمائة مركب تجعل لهم السيادة عليها ، ولهؤلاء أربعون رئيساً ويدين هؤلاء الرؤساء جميعاً بالطاعة والولاء للشيخ حسن طوبار شيخ بلدة المنزلة فهو الزعيم الأكبر لهذه المنطقة . . .

ولقد هب حسن طوبار فى منطقة المنزلة كما فعل عمر مكرم فى القاهرة ومحمد كريم فى البحيرة منذ وطئت أرض مصر الحملة الفرنسية يعمل بقوة وينتقل فى بلاد المنطقة لا يدع الوقت يسبقه ليجمع النجدات فى مواقع رئيسية يهاجم بها القوات الفرنسية الزاحفة ، مما حمل الفرنسيين على الاتجاه نحو أسره وتحطيم أسطوله .

وعندما وصل الفرنسيون إلى (محلة دمنه) وعلى طول الطريق إلى المنزلة وجدوا أن الأهالى هجروا البلاد وتركوها يباباً مما أحرج مركز الغزاة ، وأرغم الجنرال (داماس) على الاتصال بمشايخ بعض القرى المجاورة للتوسط لدى الأهالى للعودة إلى قراهم .

وعندما وصلت السفن الفرنسية تجاه قرية الجمالية انتهز الأهالى هذه الفرصة فهجموا على السفن ومن فيها وقذفوها بالنيران والحجارة وحطموا كل ما وقع تحت أيديهم ، مما اضطر الجنرال (داماس) إلى إنزال جنوده إلى البر لوقف تيار هذه الغارات ، ثم آثر السلامة فى نهاية الأمر وعاد إلى المنصورة بعد أن تكبد الخسائر الفادحة .

وكان هذا كله من إعداد الصياد حسن طوبار .

ومنذ بدأت المعركة الأولى التى وصفها المؤرخ (ريبو) أخذ حسن طوبار يعمل بقوة فى سبيل الحصول على الأسلحة والذخيرة ومضى يعد قواته و يدرب أهل المنطقة استعداداً للمعركة الفاصلة .

ورأى الفرنسيون أن حسن طوبار يعمل فى الخفاء و يتأهب لمفاجأة خطيرة . فحاولوا الاتصال به وإغراءه فكان صريحاً واضحاً حين التقى بالفرنسيين الكبار فى إعلان عدائه وخصومته وإظهار استيائه من حرق الفرنسيين لمدينة الجمالية التى كان أهلها يعتبرونه حامياً لهم والمسئول عن حياتهم ، وهدده الفرنسيون بعد أن فشلوا فى إقناعه ، فلما لم يهزه التهديد لجأوا إلى الحيلة . هنالك أرسل نابليون اليه الهدايا الثمينة عن طريق الجنرال فيال فرفض الذهاب

لتسلمها ، وظن أنها ربما كانت حيلة للقبض عليه ، ولم يلبث أن صمم على الحرب .

فحزم أمتعته وأخذ أمواله وأسرته وسافر بهم إلى غزة ، وعاد ليجمع أكبر عدد من السفن فى بحيرة المنزلة للهجوم على الفرنسيين عن طريق البحيرة .

ومضى يجوب البلاد الواقعة على بحر أشمون يحرض الأهالى على الثورة ،وكان يرسل رسله إلى البلاد الأخرى لتنظيم المقاومة . ولم يستطع الفرنسيون فى خلال هذه الفترة أن يضعوا أيديهم عليه أو اتهامه ، فقد كان الأهالى يحيطونه بالرعاية الشاملة .

وجاء اليوم الذى حدده « حسن طوبار » فزحف على دمياط فى ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ وتمكن الثوار من الانتصار فى أول الأمر ؛ فلما أحسوا بأن الفرنسيين سيطوقونهم ركبوا السفن التى استعانوا بها ميممين جنوب سوريا تأهباً لمعركة قادمة .

وأزعج ذلك نابليون أيما إزعاج ، وبعث يطلب احتلال منطقة بحيرة المنزلة والاستيلاء عليها عنوة ، واعتقال حسن طوبار ، فما إن وصلت القوات الفرنسية إلى المنزلة حتى وجدت أهلها قد أخلوها تماماً .

ووقف أسطول نابليون فى مياه دمياط مهاجماً أسطول حسن طوبار مهاجمة عنيفة . ولولا مدفعية السواحل لتمكن حسن طوبار من إغراق أسطول فرنسا .

وحاول الفرنسيون أن يسيطروا على منازل حسن طوبار

لجعلها ثكنات فرفض الأهالى ؛ فلما هم الجنود بكسر الأبواب تقدم عشر شيوخ ووقفوا بينهم وبين الباب . . .

وقالوا : إنهم لن يتحركوا حتى يخترق الرصاص صدورهم ، وعندما تمكن الفرنسيون من وضع يدهم على المنزلة ثم المطرية هاجر حسن طوبار إلى غزة ومعه عدد كبير من رجاله تأهباً لعمل جديد . . . ولم يهدأ الفرنسيون بعد هجرة حسن طوبار . فقد كانوا يعتقدون أنه سيفاجئهم بحملة جديدة . كانوا قلقين كلما وصلت إليهم أنباء الاستعدادات التى يقوم بها هناك لغزو دمياط .

ولم يلبث حسن طوبار أن توفى فى ٢٩ يوليو ١٨٠٠ ، مات فجأة بالسكتة القلبية ، ونعته الصحف الفرنسية فى صدر صفحاتها الأولى ، مات وهو يتأهب بجولة جديدة ، وقيل إنه مات حزناً وكمداً .

وقد ذكره نابليون فى مذكراته وأشاد ببطولته وقال : «كان من الصعب أن نصدق أن يقوم رجل مصرى ساذج بمثل هذه الخطط الحربية الباهرة ، لقد رفض رفع الراية البيضاء أمام أسطولنا وقال إنه مسئول عن كل أراضى الدلتا . . . »

محمد عبيد

« القائد الذى استشهد على تراب التل الكبير »

١٨٨٢

« قال لشريف : إذا لم يصدر الدستور
الليلة فلأقطعن رءوس الخونة »

إذا كانت الثورة العرابية قد عرفت باسم قائدها « عرابى » فإن بطلها وروحها وشهيدها كان « محمد عبيد » الرجل الذى ظل يحارب مع ألايين من الجنود حتى استشهد فوق تراب التل الكبير .

وكأنه قد عاهد نفسه أن لا يرى جيوش بريطانيا وهى تدخل بلاده أو تدنس أرض وطنه .

وهو شبيه فى هذا بالبطل « يوسف العظمة » الذى استشهد فى ميسلون حتى لا يرى الفرنسيين وهم يدخلون بلاده .

كذلك كان محمد عبيد هو القائد الوحيد فى الضباط العرابيين السبعة (البارودى ومحمود فهمى وعبد العال حلمى وطلبة عصمت) الذى استشهد فى معركة التل الكبير ولم يشهد قوات الاحتلال وهى تغتصب وطنه .

وقد دافع دفاعاً مجيداً فى المعركة — لم يعبأ بقرار بعض

القادة وأدى واجبه حتى النهاية . وقاتل الإنجليز على رأس ألآيين من الجنود وظل فى موقفه يدافع على نحو أذهل ولسلى القائد الإنجليزى ، فشدد الهجوم على جناحه حتى انكشف فقتل وهو يقاتل ، ومات وفى يده سلاحه وعبر الإنجليز على جثته .

وقد اختفت هذه الجثة ولم يعرف لها سبيل ، ولم يترك ذرية ، ومات شهيداً شريفاً وليس له قبر معروف .

وقد شهد المؤرخون جميعاً بأن الآلاى الذى يقوده الأميرالاى محمد عبيد قد صمد صموداً باسلا ، كما شهد عرابى بذلك فقال فى مذكراته : إن معظم الجنود ألقوا الأسلحة وفروا طالبين النجاة لأنفسهم . . . ومن بين الذين صمدوا آلاى محمد بك عبيد ،وقال إنهم ثبتوا فى مركزهم وقاتلوا أعداءهم حتى النهاية واستشهد فيهم من استشهد وجرح من جرح .

ولا شك أن موقفه آية فى البطولة وأن المفاجأة التى هاجمت بها القوات البريطانية معسكر العرابيين كانت مذهلة وقد أفقدت الكثير من هذه القوات القدرة على العمل .

فقد تحرك الجيش الإنجليزى من القصاصين فى منتصف الساعة الثانية صباحاً وكان الظلام حالكاً . وأصدر الجنرال ولسلى تعلياته بأن تطفأ كل الأنوار أثناء السير حتى لا يشعر العرابيون بزحفه ، وكان هناك بعض الضباط الخونة الذين كانوا يرشدون القوات البريطانية ، ومعهم عربان الهنادى ممن اشتراهم الإنجليز .

وقطع الجيش الإنجليزى نحو خمسة عشر كيلو متراً دون أن تصادفهم طلائع المصريين .

واستمر زحف الإنجليز حتى مطلع الفجر ، حيث بلغوا معسكر العرابيين . ويقول عبد الرحمن الرافعى : إن المصريين قد فوجئوا بالهجوم بعد أن كانوا نائمين فاستيقظوا على صوت البنادق ،وكان الهجوم على شكل دائرة أحاطت بمعسكر العرابيين فاقتحمت الجنود الإنجليزية الاستحكامات الأمامية وأطلق رماتها القنابل والبنادق عليهم وقتل منهم فى هذه الهجمة نحو مائتين قبل أن يصلوا إلى الخنادق . ووصل الإنجليز إلى الاستحكامات الثانية ، وهجم فرسان الجيش البريطانى على ميسرة العرابيين وكان محمد عبيد على رأس ألايين من السودانيين ظلوا يدافعون الإنجليز حتى استشهد معظمهم وقتل محمد عبيد .

وإذا كان محمد عبيد هو أول من استشهد فإنه أول من ثار ، فقد كان فى طليعة العرابيين الذين رفعوا الصوت عالياً ضد تسلط الجركس ، وفى مقدمتهم عثمان رفقى وزير الحربية وهو الذى خلص عرابى وعلى فهمى وعبد العال عند اعتقالهم فى ثكنات قصر النيل بعد تقديمهم عريضة الاحتجاج فى ١٧ يناير ١٨٨١ .

وتعد وقعة قصر النيل أولى وقائع الثورة .

وعندما علم محمد عبيد باعتقال الضباط الثلاثة وكان مقره قشلاق عابدين ، أهاب بجنود الألاى أن يزحفوا على قصر النيل لإطلاق سراح الميرالايات الثلاثة فقد أمر بضرب البروجى نوبة احتشاد .

وقاد ألالاى طره بعد أن اعتقل قائد الألاى الجديد الذى عين بعد اعتقال عبد العال حلمى وسجنه وتحرك بجنوده إلى ثكنات قصر النيل حيث حاصرها ثم توجه على رأس قوة أخرى حيث اخترق ديوان الوزارة شاهراً سيفه .

وقد وضع الحراب على رؤوس البنادق وأزاح من طريقه ستون باشا رئيس أركان الحرب ، واقتحموا الديوان صائحين ، فوقع الرعب فى نفوس القواد والضباط الموجودين بالديوان ، وفى مقدمتهم عثمان رفقى (وزير الحربية) وبادروا إلى الفرار وبحث الجند عن الضباط المعتقلين وكسروا الأبواب والشبابيك إلى أن وصلوا إلى مقر الضباط الثلاثة حيث فك البكباشى محمد عبيد سراحهم .

وكان هذا أول انتصار للثورة .

وقد ظل محمد عبيد طوال فترة الثورة العرابية عاملا هاماً يحسب حسابه وخاصة حتى ما ذهب مع عرابى لمقابلة شريف فى وزارته الثانية ليتعجل إصدار الدستور .

وكان الجو بين شريف وعرابى مضطرباً ، ولم يكد عرابى يتحدث إلى شريف حتى رده فى عنف ، عندئذ انبرى له محمد عبيد ، وهدده إذ أقسم صائحاً :

« إذا لم يصدر الدستور الليلة فلأقطعن رؤوس الخونة » .

فوجم عرابى وخاف شريف ، وبذل عرابى جهده فى إفهام الوزير أن عبيد لا ينوى إلا خيراً .

وعندما احتمى الخديوى توفيق بالدول الأجنبية واجتمع النواب وأذناب توفيق تحت زعامة الخائن سلطان باشا ، وذهب إليهم عرابى مساء ٢٧ مايو ١٨٨٢ وقال لهم : إن مصر لن تقبل التدخل الأجنبى .

وبدأت أصوات الهزيمة ترتفع .

غير أن محمد عبيد دخل وهو يهدر غاضباً وحوله بعض الضباط فى شبه مظاهرة عسكرية وهددهم جميعاً بالشنق .

وبذلك صمتوا واجمين .

وقد عرف محمد عبيد بالشجاعة والوفاء ، وقد حفظ عرابى لمحمد عبيد موقفه من حادث قصر النيل حتى كان موقفه يوم التل الكبير ، فقد صمد مع اللواءين صموداً مهيباً ، وبالرغم من الذعر وأعمال الفرار التى وقع فيها عرابى وعدد من كبار الضباط ، فإن الضابط الشجاع أدى واجبه إلى النهاية وقاتل الإنجليز قتالا رهيباً حتى قتل .

وهو من كفر الزيات ولم يخلف ذرية وليس له قبر معروف .

توفى فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢

عبد القادر الجزائرى

« أول من حمل لواء القومية العربية من المحيط إلى الخليج »

— ١٨٨٣

اليوم والجزائر تدخل نطاق الحرية وتخلع عنها ثوب الاحتلال الذى امتد مائة واثنين وثلاثين عاماً . تلتفت المشاعر إلى عبد القادر الجزائرى أول من حمل السلاح فى سبيل الحرية منذ اليوم الأول للاستعمار الفرنسى للجزائر ، ومنذ ذلك اليوم لم تتوقف الجزائر عن الجهاد وتقديم الفداء فى سبيل الحرية ، لقد خاض عبد القادر الجزائرى المعارك فارساً مقاتلا حاملا لواء الثورة على العدو مدى خمسة عشر عاماً ؛ لا يتوقف ولا يهدأ ولا يتراجع ، وهو فى إهابه القوى وطلعته المهيبة وكفايته الحربية وصرامته وهدوئه وصبره مضرب الأمثال .وكذلك كان فى تدويخ فرنسا وقض مضجعها و إذلال قواتها الضخمة .

لقد كانت حياة عبد القادر الجزائرى وجهاده مرحلة ضخمة جبارة رائعة اهتز لها الفرنسيون وأصابهم الدوار ؛ فمضوا يدبرون له المؤامرات فيفلت منها ويكيل لهم اللطمات ؛ يحاولون إغراءه ليتوقف فيفوت عليهم غرضهم . ويقوى جبهته ويكتل أنصاره ليضرب ضربة جديدة .

بايع الشعب عبد القادر الجزائرى وخلع عليه لقب الإمارة . فقبل القيادة ورفض الإمارة ، كان ذلك فى ١٤ فبراير ١٨٣٣ بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر بثلاثة أعوام (١٨٣٠) — وكان فى سن الخامسة والعشرين شاباً يتفصد حماسة وغيرة على وطنه . فما لبث أن جمع القبائل لمقاومة العدو ، وواجه الاستعمار بقوة وخاض عدداً من المعارك مما اضطر فرنسا إلى عقد معاهدة صلح معه عام ١٨٣٤ . حيث مضى يعد نفسه لعمل ضخم . عندما تفرغ للإصلاح الداخلى وأنشأ مصانع الأسلحة وصب المدافع وصنع البارود ، ولم يلبث الفرنسيون أن نقضوا المعاهدة عام ١٨٣٥ وهنالك حاصر عبد القادر الجيوش الفرنسية وامتدت الحرب ست سنوات كاملة ؛ أغرت خلالها فرنسا سلطات مراكش على الوقوف فى صفها ضد عبد القادر ، ولم يُضعف ذلك من عزيمة عبد القادر الذى مضى يحارب بقوة خمس سنوات أخرى لا يتوقف ولا يتراجع ، يضع الخطط بنفسه وينفذها بنفسه . ولم يثنه عن العمل غدر القبائل به حين أغراها الفرنسيون بالذهب .

وكانت أبرز معاركه عندما حاصر « وهران » منطقة تكتل القوى الفرنسية ، حيث استطاع بعد معركة دموية دامت ست ساعات فوق بطاحها أن يحرز النصر بجيشه القليل وأسلحته المصنوعة فى الجزائر ، وإليه طلب الفرنسيون المفاوضة التى أسفرت عن اتفاقية « دى ميشيل » التى كانت نصراً له حيث أصبح

حاكماً مستقلاً لولاية « وهران » .

* * *

وقد اصطنع عبد القادر فى هذه المعركة أساليب العرب فى فجر الإسلام فأذهل العدو إذ خرج بنفسه للقائد الفرنسى فى قوة و إيمان — كما فعل خالد بن الوليد — فلما رأى الخطة الفرنسية تتجه إلى الغدر سارع يقود خطة حربية وسريعة تهدف إلى قطع الطريق بين تلمسان ووهران . فحاصر الطريق بفرسانه وحصر القائد الفرنسى الذى كان فى طريقه إلى الهرب وكان حصاراً مميتاً .

* * *

ولم يلبث الفرنسيون أن استقبلوا إمدادات جديدة ليدخلوا معركة من أضخم المعارك هى معركة (تافنا) التى نشبت فى أبريل عام ١٨٣٧ وانتهت بعد خمسة أيام رهيبة بارتداد الفرنسيين إلى وهران .

ولم يتوقف الفرنسيون عن إزعاج عبد القادر حين لمسوا ما قام به من إصلاحات ضخمة فأرسلوا جحافل من قواتهم للتحدى باحتلال منطقة « قسطنطينة » فلم يلبث عبد القادر أن رد على ذلك باحتلال مواقع استراتيجية ممتازة ؛ فاشتد التوتر بينه وبين فرنسا التى أعلنت عليه الحصار البحرى ، وحرمت عبد القادر كل فرصة لاسترداد الذخائر و بدأت خطة آثمة ترمى الى خطف النساء واستعبادهن . . . . ولكن الجزائريين حصلوا فى مقابل

كل جندى جزائرى على خمسة عشر محارباً فرنسياً مع عتادهم وبدأت الكماشة الفرنسية الضخمة تشدد الضغط على القوات الجزائرية العربية .

* * *

وكان فى مقدور عبد القادر أن يمضى مع الحرب مواجهاً الفرنسيين فى قوة لولا انضمام سلطان مراكش إلى فرنسا . وانضمام بعض القبائل إلى سلطان مراكش ، مما خلق عدداً من الجبهات المحاربة فى أماكن متعددة ، وكانت هذه مؤامرة جديدة لتمزيق قوات عبد القادر لتدخل عدداً من المعارك فى وقت واحد ، ومع ذلك فقد رفض عبد القادر التسليم حتى حوصر ونفدت ذخيرته ومؤنه واعتقل فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٤٧ .

والواقع أن عبد القادر لم يهزم عن طريق الحرب . بالرغم من تضاعف قوات عدوه وأسلحته الجديدة فإن روح الجهاد الأصيل الذى عرفت به العزيمة المغربية القوية وإيمانه الصادق وشجاعته النادرة ، كل هذا كان كافياً للصمود .

ولكن الهزيمة فى هذه المعركة وكل المعارك العربية فى التل الكبير فى مصر وميسلون فى سوريا كانت بالخيانة والمؤامرة والذهب واستغلال بعض السلاطين والباشوات من أعوان الاستعمار .

هنالك ؛ وبعد خمسة عشر عاماً أخرج عبد القادر إلى فرنسا ثم اختار سوريا للإقامة بها بقية حياته حيث بدأ حياة جديدة .

وصل إلى دمشق عام ١٨٥٣ بعد أن أمضى خمس سنوات فى فرنسا ، وكانت معه فى رحلته إلى سورية جالية جزائرية كبيرة وكأنما قد أريد له أن يشهد موقف بطولة آخر هى بطولة الرحمة والشهامة والإباء .

فقد وقعت المؤامرة التى صنعها الإنجليز والفرنسيون بين أهل الشام بإثارة الخلافات بين الموارنة والدروز ، فكانت معركة ١٨٦٠ التى جرت فيها المذابح وسالت الدماء أنهاراً ، هنالك وقف الأمير موقف المعارضة . وعندما بدأت المعركة فى ٩ يوليو ١٨٦٠ بعث إلى كل المغاربة فى دمشق وكانوا جالية ضخمة فاستدعاهم ووزعهم على أحياء المدينة لإنقاذ كل من يجدون من المسيحيين فكانوا يهجمون بقلوب لا تخاف الردى يخلصونهم ويردونهم إلى بيت عبد القادر . ولما علم النصارى بحماية عبد القادر لهم أخذوا يفرون بأنفسهم إليه ويقيمون فى بيته .

واستولى الأمير على البيوت المجاورة له وأسكن بها من لاذوا به ، ومن جملتهم قناصل الدول ؛ وأخذ ينفق عليهم ويرعاهم بنفسه ، ولما حاول الأكراد مهاجمتهم ردهم رجاله بقوة وصلابة وعزم . وكاد والى دمشق أن يخدع خمسة آلاف ليدخلهم القلعة بحجة تأمينهم فخرج إليه الأمير ورجاله فى سلاح وقوة فاستخلصوا منه هذا العدد الضخم .

واستمرت الثورة سبعة أيام متوالية لم ينم عبد القادر خلالها لحظة ؛ كان يقضى ليله ساهراً وسلاحه فى يده حرصاً على من هم

فى حماه . ورجاله منبثون فى كل مكان ينصرون المظلومين ويطبّون للجرحى ويرعون الثكالى من النساء . وبلغ فى حماه أربعة آلاف.

كما حاصر القلعة وتسلمها ودخل كل من فيها فى رعايته وكانوا ستة آلاف وقد عرف له المؤرخون الغربيون هذا العمل الضخم الذى يعطى صورة شهامته ورجولته وإيمانه ؛فقد استطاع أن يحقق عمليًّا أسلوب « الأريحية العربية » فى النجدة والبذل وحماية الذمار والرعاية القائمة على الإيمان بالقومية المشتركة بصرف النظر عن فارق الدين ،وقد قام عبد القادر بهذا الجهد الباهر وهو غير أمير فى وطنه ، أو صاحب سلطان؛ ولكن عاطفته الكبيرة ،وطبيعته الإيجابية وإيمانه العميق ؛كل هذا دفعه إلى أن يخوض معركة جديدة فى سبيل السلام وتحرير النفس البشرية من الظلم والعسف وليضيف صفحة أخرى باهرة أشد ضياءاً إلى صفحة كفاحه فى سبيل الحرية .

* * *

ولد عبد القادر الجزائرى فى قرية (القيطنة التابعة لإيالة وهران عام ١٨٠٧وكان والده من كبار العلماء ،وقد اشتهر بشدة البأس ، وسافر عبد القادر فى شبابه إلى الحجاز حيث تلقى العلم ثم زار مصر فدمشق وبغداد فى رحلة امتدت ثلاثة أعوام . وقد كان فى مطالع حياته شغوفاً بالعلم والثقافة ، حتى إنه طالع عديداً من كتب الفقه والتاريخ . وعند ما استولى الفرنسيون على

الجزائر عام ١٨٣٠ كان ذلك نقطة تحول فى حياته كلها . فقد نفض يده من كل شىء واتجه إلى العمل وأعطاه والده حق قيادة كتائب الجهاد ؛ فاستطاع وهو الذى لم يبلغ الأربعين أن يوحد القبائل ويجمع كلمتها لمقاومة العدو . وواصل العمل والجهاد منذ عام ١٨٣٤ حتى عام ١٨٤٦ فى حرب متصلة استمرت خمسة عشر عاماً .

فلما أسروه ؛ ظل فى سجنه يكتب ويؤلف ثم أطلق سراحه وسافر إلى دمشق .

وكان عبد القادر هو أول من دعا إلى القومية العربية وعمل على تكتيل الأمة العربية وتوحيد جبهتها فى كتلة قوية ، من أقصى الأطلنطى إلى تخوم بلاد النهرين . ولولا ظروف حربه التحريرية وغلبة العنصر التركى وسيادته على البلاد العربية واتجاه محمد على نحو فرنسا لاستطاع أن يمضى فى سبيل هذه الغاية .

وقد عرف عبد القادر فى كل أدوار حياته بالحكمة والسداد والصلابة فى الحق ، الذكاء النادر وإحكام التصرف والرأى والشجاعة ، إلى قوة البدن والفروسية ومهارته فى ركوب الخيل ، والشغف بالعلم والخلوة والتصوف . وكان يقضى فترة عزلته فى دمشق التى امتدت ربع قرن كامل فى القراءة والصلاة والتدريس فقد كان يملك مكتبة ثمينة ضخمة . وقد عرف فى حربه بأسلوب تقسيم الجيش إلى ثلاثة أقسام : قسم يهاجم الفرنسيين ، وقسم احتياطى للمفاجآت المباغتة ، وقسم يلتف حول العدو .

هذا وقد جاهد أولاده وأحفاده فى مختلف ميادين الجهاد ضد الاستعمار؛ فمحيي الدين عاد إلى الجزائر ليحارب على رأس الثوار ، وغيره اشترك فى الثورة الليبية ضد إيطاليا ، ومات عبد القادر الصغير شهيداً برصاص الأتراك ، وقتل أحمد جمال باشا السفاح الأمير « عمر عبد القادر » لاشتراكه فى الحرب العربية الأولى ، ومعارضة سياسة تتريك العرب، وسافر سعيد الجزائرى إلى الجزائر لإثارة الاضطرابات فى وجه الفرنسيين .

توفى سنة ١٨٨٣

إبراهيم اللقانى

(التلميذ الثانى لجمال الدين الأفغانى)

— ١٩٠٧

« إن الداء هو فساد أخلاق الأمراء
وجهلهم بواجباتهم »

هذا اسم من أبرز الأسماء التى تألقت فى مطالع النهضة الفكرية العربية التى برزت فى مصر بقيادة السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد كان إبراهيم اللقانى التلميذ الثانى للأفغانى وتلميذه الأول هو الشيخ محمد عبده .

ولكن أين تاريخ هذا العلامة ، إن اسمه يكاد ينطوى ؛ فإذا ذهبنا نبحث عنه لم نجد إلا نتفاً صغيرة ، وسطوراً قليلة مدفونة فى بطون الصحف والمجلات . . . ففى دار الكتب لا تجد فى فهارسها أى كتاب منسوب إليه وفى الصحف لا توجد إلا مقالاته التى كتبها خلال تولية تحرير جريدة مرآة الشرق عام ١٨٧٨ .

فإذا ذهبنا نبحث فى مراجع الأعلام المتعددة التى كتبها عشرات المؤرخين عن العصر الحديث وفى مقدمتها : « **مصادر الدراسة الأدبية » ليوسف أسعد داغر أو « الأعلام » للزركلى**

أو تاريخ الصحافة العربية لفيليب دى طرازى أو أشهر مشاهير الشرق لجورجى زيدان لا نجد شيئاً عن هذا المجاهد صاحب القلم النارى الذى كان أول من هاجم الأمراء فى مصر وحكام أسرة محمد على وأعوانهم من الاستعماريين مهاجمة عنيفة . وربما كان هذا العمل هو الذى وضع اسمه فى القائمة السوداء طوال العهد الماضى مما حال بين تاريخه وجهاده وبين الظهور على النحو الذى ظهر به كفاح كثيرين أمثال أديب إسحاق ، وسليم عنحورى ، وهما من الذين تحولوا بعد الثورة العرابية وهاجموا اتجاهها التحريرى ووقفوا فى صف الخديو .

أما إبراهيم اللقانى فلم يعرف له من الآثار بعد كتاباته فى جريدة مرآة الشرق اليومية عامى ١٨٧٨ و ١٨٧٩ فقد أُخرج جمال الدين الأفغانى من مصر خلال عام ١٨٧٩ وأوقفت صحيفة مرآة الشرق ، وقضى على الاتجاه التحررى الذى قام به وتفرق أعوانه ، ويغلب أنه ترك الجريدة فى أغسطس سنة ١٨٧٩ غير أن إبراهيم اللقانى كان فى خلال هذه الفترة المحامى البارع الذى لم يلبث أن مضى مع خطوات الحركة العرابية وأيدها حتى إذا فشلت وهزم عرابى وحوكم أنصاره كان واحداً من الذين حكم عليهم بالنفى إلى سوريا مع الشيخ محمد عبده حيث أمضى هناك ثلاث سنوات . وعاد عام ١٨٨٦ .

وقد أشار « محمد مسعود » فى تقويم المؤيد ١٩٠٨ بأن

إبراهيم اللقانى قد أعيد قيده محامياً أمام المحاكم الأهلية فى ١٩ يناير ١٨٨٩ غير أن هذه الفترة منذ عودته من المنفى حتى وفاته فى نهاية عام ١٩٠٦ لم تعرف تفاصيلها على وجه التحقيق ويبدو أن مرضه حال دون اشتراكه فى الدفاع عن المقبوض عليهم فى قضية دنشواى .

وقد أشار الشيخ رشيد رضا فى كلمات رثائه القليلة (المنار م ١٠ – ١٩٠٧) بأنه نابغة النابغين وأفصح العلماء وأبلغ المنشئين العالم القانونى وهو أرقى تلاميذ السيد جمال بعد الأستاذ الإمام ، وكان له فى تلك النهضة الجمالية المقالات الرائعة والخطب النافعة .

ولكن الأمراض حالت بين الأمة و بين مساعدته لها بالإصلاح فى هذه السنين . وقد كان أكبر عزاء أهل العلم والأدب عنه أنه كان من تبريح مرض السل به لا راحة له فى الحياة ولا نفع للأمة منه ولا أنس للأصدقاء به . . .

كما أشار الشيخ رشيد رضا إلى أن اللقانى هو أول من بلغه وفاة السيد جمال الدين فى ١٠ مارس ١٨٩٧ وأشار شكيب أرسلان إلى أن الشيخ محمد عبده وإبراهيم اللقانى وعدداً من ضباط الجيش قدموا إلى بيروت عام ١٨٨٣ وطاب لهم المقام فيها لما قابلهم من كرام أهلها من العلماء والأدباء .

ومما أورده رشيد رضا أنهم عندما كادوا للشيخ محمد عبده بنشر (جريدة الحمارة) الصورة المزورة التى أظهرته مع سيدة

إفرنجية نظم إبراهيم اللقانى أبياتاً قال فيها :

مكيـــدة لفتـــوها بصـــورة مســـتعارة
ودبـــروها وكانـــوا بقيـــة الاســـتشارة
ولطخـــوا بعد هذا بالطين وجـــه الحمارة

وقد تواتر فيما كتب عن جمال الدين أنه كان إذا رام إنشاء مقالة ألقى على إبراهيم اللقانى إلقاء قلما يراجعه أو يصلحه .

و يعطى أسلوب اللقانى وكتاباته صورة للمنهج الفكرى الذى أثاره فى مصر والعالم الإسلامى كله السيد جمال الدين الأفغانى وحمل لواءه من الكتاب : محمد عبده وأديب إسحق والنقاش وسليم عنحورى ، وتميز (إبراهيم اللقانى) بعمق الإيمان وصدق الحماسة واستمرار الثبات على العقيدة مع اختلاف الظروف . . . فى دراسة أزمة الأمة العربية إزاء النفوذ الغربى .

« حارت الألباب ، وتاهت الأفكار ، وضلت العقول ، ووقفت الأوهام ، واضطربت الظنون ، وارتبكت الآراء فى أحوال الشرقيين ، واختلال نظامهم وسوء تدبيرهم ، وضعف قلوبهم وسقوط قدرهم ، وانحطاط هممهم ، وما هى فيه من العجز ، والذلة والمسكنة والقهر والأسر ، وما يتبع ذلك من المصائب والبلايا التى استهدفتهم فأصابتهم جميعاً من أقاصى بلاد أفريقيا إلى أعالى آسيا ما بين تركى و إيرانى و بخارى وأفغانى ومغربى وسورى ومصرى .

وسرى الداء فى أعصابهم وعروقهم وتمكن من أفئدتهم

فوهت قواهم ، وانحلت عراها ووهنت عزائمهم واختلت مشاعرهم وأزمن ذلك الداء فصار عضالا حتى أعيا الأطباء ، وأعجز الحكماء فلا علاج ينفعه ولا دواء يدفعه .

وما علموا أنه داء باطن دب فى القلوب ... وسرى فى النفوس لا يفيده التطبيب ولا ينجع فيه التقطيب . ألا وهو فساد أخلاق الأمراء وجهلهم بموجباتهم وسوء تدريبهم واختلال أمرهم ، وقبح تصرفاتهم ، واستبدادهم فى الرأى ، واستئثارهم بالمجد ، وشرههم وثورة طمعهم وانقيادهم للشهوات ، وتهالكهم على الأولاد ، وإغفالهم مصالح العباد وإهمالهم منافع البلاد ، لا يعرفون شرعاً ، ولا يرضون قانوناً ، ولا يقبلون نصحاً ، بل تعدوا الحدود ، وانتهكوا المحارم ، وثلموا الأعراض ، وحاربوا العدل ، وقاوموا الإنصاف فطغوا وبغوا ونهبوا وسلبوا وفتكوا وهتكوا حبا فى أعراضهم وكرامة لشهواتهم فشادوا القصور ، وغرسوا البساتين واقتنوا الحور والولدان . وتأنقوا فى المآكل وتفننوا فى المشارب وزينوا الملابس وسحبوا مطارف العجب والخيلاء ، وأفراد الرعية على مرائى منهم حفاة عراة يتضورون جوعاً ويتلظون ظمأ . ويموتون برداً ، يئنون ولا رحمة ، ويحنون ولا رأفة .

لقد تأصل ذلك المرض فى نفوس أولئك الأمراء وتوارثته أعقابهم فاستحكم ، أصلا ، ونما فرعاً ، وليس له من علاج سوى قمع أولئك المستبدين وكف نفوذهم ، وقلم أظفار تعديهم ، وتقييد سلطتهم ومقاومة سطوتهم وإيقافهم عند الحدود وإلزامهم

بالشرائع والقوانين . . . ولا يمكن ذلك إلا بأن تصير الحكومة شورية حقيقية لا تشوبها شائبة التقييد يقوم بأمرها من يقدرها حق قدرها من ذوى الحكمة والتبريز » .

وهذا هو مجمل الدعوة التى حمل لواءها جمال الدين فى الشورى والقضاء على حكم الفرد الأوتقراطى ممثلا فى حكم إسماعيل . فلما أخرج إسماعيل وتولى توفيق وكان السيد جمال الدين الأفغانى يطمع فى أن يسير سيراً شعبيًّا ديمقراطيًّا . وأن يحقق الشورى حرض إبراهيم اللقانى كل يوم على أن يوجه إليه خطاباً يدعوه إلى تحقيق ما وعد به من إصلاح ، ومما قال له :

نرجو ألا يدنو من حياته الكريمة إلا من تحققت النسبة بينه وبينه فى الكمال . فلا تتألف حاشيته إلا من النجباء والفضلاء وذوى الغيرة والحمية الوطنية المبرئين من وصمة الطيش والغلو ، المحلين بحلية الفضيلة ، المستنيرة عقولهم بأنوار المعارف الحقة المنزهة عن الميل إلى سفاسف الأمور . وسداد رأيه يدعوه لأن يبعد عن ساحته أولئك المفسدين الذين يتعرفون إلى ذى الإمرة بالتملق ويتزلفون إليه بالنفاق والتدليس ، ويسعون لديه بالوشاية فى عباد الله ، وأن يطرد أولئك الذئاب العاوية اللابسين جلود الأغنام الذين لا همة لهم إلا فى جمع الحطام ليكتنزوها أو ينفقوها فى شهواتهم ولذاتهم .

ومما وجهه إليه قوله :

ولا يذهبن عن فطرته السليمة أن مقدمة الإصلاح ووسيلة

النجاح وطليعة الفلاح نشر علم الحرية فى الأفكار والأقوال والأعمال ورفع قيد العبودية فى شىء منها حتى تنطلق الأفكار تجول فيما يفيد البلاد و يعودعليها بحسن المآل ويخلصها من وهدة الاحتلال ، ويثبت تلك الألسنة الناطقة بالحق المنزهة عن الأغراض الشهوانية ليقف عليه كل ذى بصيرة فيعمل لوطنه بدون رهبة ولا مخافة . . . (٣٠ يونية ١٨٧٩) .

هذا هو اتجاه إبراهيم اللقانى الواضح الصريح القوى الذى قضى عليه اندفاع الخديو توفيق وراء مشورة القنصل البريطانى . فأمر بإخراج جمال الدين من مصر فحمل ذات ليلة وهو عائد إلى منزله إلى القسم حيث بات ليلته مسجوناً ثم نقل فى الصباح إلى السويس وأودع إلى البواخر المتجهة إلى الهند . وفرض على الصحف نشر بيان رسمى تضمن محاولة لتبرير إخراجه من البلاد لأنه رأس عصابة سرية ، وحيل بين أنصاره وأعوانه من العمل حتى كانت الثورة العرابية خطوة عملية فى سبيل تحقيق رسالة جمال الدين التى ظل يطوف من أجلها العالم العربى وأوربا حتى استقر فى باريس وأصدر العروة الوثقى وشاركه فى عمله الشيخ محمد عبده الذى نفى بعد الثورة العرابية إلى بيروت ومنها سافر إلى باريس . أما إبراهيم اللقانى فقد أقام فى بيروت . وعاد إلى مصر بعد ثلاث سنوات وظل يتابع بعاطفته أستاذه جمال الدين الذى استقر فى الآستانة شبه مقيد فى قفص من ذهب .

وواجه إبراهيم اللقانى أيام الاحتلال السوداء . وعكف على عمله فى المحاماة سنوات حتى حجبه المرض عن ميدان الجهاد ، ولو كان معافى لشارك فى الدفاع عن مجاهدى دنشواى . وكان لسان صدق فى هذه القضية التاريخية . .

ومن العجيب أنه مات فى نهاية عام ١٩٠٧ فى الأيام نفسها التى أفرج فيها عن مسجونى دنشواى وعمت الفرحة بالإفراج عنهم .

وقد ذكر بعض المؤرخين فى وقائع حياته أنه اشترك مع الشيخ محمد عبده فى تحرير الوقائع ، غير أنه بالتحقيق فى ذلك لم يثبت ، فقد راجعت مؤلف الدكتور إبراهيم عبده عن تاريخ الوقائع المصرية والفصل الخاص بدور الشيخ محمد عبده فيها : فلم يرد فيه اسم إبراهيم اللقانى من بين الكتاب الذين استخدمهم الشيخ عبده والمؤكد أنه حرر جريدة مرآة الشرق التى أصدرها سليم عنحورى منذ العدد الثامن عشر فى ٢٨ أبريل سنة ١٨٧٩ وكان اللقانى يحرر يومياً المقال الرئيسى فى هذه الصحيفة بأسلوبه القوى ومعانيه الحية النابضة بالإيمان على النحو الذى قدمناه .

ويبدو فى أسلوبه : التحليل العميق والوضوح وسلامة العبارة وقوة الدليل المدعم بالحجة وربط الأسباب بالمسببات . وهو أسلوب الفكرة والعاطفة ممتزجتين ، وهو وسط بين أسلوب الشيخ عبده الذى وصف بأسلوب الفكرة وأسلوب أديب إسحاق الذى وصف بأسلوب العاطفة .

وينتسب إبراهيم اللقانى إلى قرية لقانة من أعمال مديرية البحيرة مركز دمنهور ، وجده الشيخ إبراهيم اللقانى له منظومة فى علم العقائد باسم جوهرة التوحيد فى التربية والتصوف . وله كتاب نشر المآثر ممن أدركهم من علماء القرن العاشر (أورده على مبارك فى الخطط) .

وفى سبيل البحث عن آثار (إبراهيم اللقانى) لم أجد ما يكشف أمامى أضواء أكثر ، وهناك فى الروضة (بدروم) يحوى بعض كتبه وأوراقه ما تزال منذ نصف قرن تغمرها مياه الفيضان كل عام ، وبعض أوراق قليلة متناثرة لم نستطع الحصول عليها ، وكنا نظن أن الشيخ رشيد رضا سيفى بوعده الذى قطعه فى المنار (يناير ١٩٠٨) بكتابة دراسة عنه فلم نجد شيئاً فى المجلدات التالية ، وكنا نتوقع أن نجد دراسة عنه فى تقويم مسعود الذى عرض فى نفس العام لمن توفوا معه فى أسبوع واحد . فلم نجد .

ولذلك فنحن لا نعرف من أعماله غير هذا المجهود الذى بذله فى تحرير مرآة الشرق واسمه اللامع فى ميدان المحاماة . . . وهو مجهود قوى عميق الأثر فى هذه المرحلة الدقيقة من حياة الأمة المصرية ، ولا شك أن رجلا اصطفاه جمال الدين الأفغانى إليه أوحبه لا بد وأنه كان قوى الشخصية صادق النفس ؛ يؤكد هذا أنه ظل وفياً لأهداف زعيمه وآرائه مدى حياته دون أن تصرفه عنها رهبة أو رغبة ، فلم ينحرف كما انحرف غيره . ولعل هذا كان عاملا من عوامل تجاهله ، وغمط حقه .

يوسف العظمة

« البطل الذى رفض أن يرى استعمار وطنه »
١٨٨٤ — ١٩٢٠

« لن تمروا أيها الأعداء إلا على جثثنا »

كانت سوريا تمر بأقسى أيامها . عندما بدأت تشرب ثمالة الكأس من يد الاستعمار ،وقد مضى عليها أربع سنوات تحمل علم القومية العربية خفاقاً، وتحمى الثورة العربية وتذود عنها . وتقود الكتائب فى ذلك الخط الطويل . من ينبع إلى دمشق وتصهر فى بوتقتها الشباب من مختلف أنحاء العالم العربى . وقد أقبل على صوت النداء ليستشهد فى معركة الأمة العربية حين انفصلت عن الغول العثمانى الذى كان يلتهمها و يحيلها جزءاً من الدولة الطورانية . هنالك تكشفت لسوريا نية الغدر ،و إذا بوعد بلفور يعطى فلسطين لليهود . و إذا بمعاهدة(سايكس — بيكو) تمزق الدولة العربية المرتقبة إلى شطائر توزع على فرنسا و بريطانيا تحت أسماء خداعة ماكرة : الوصاية والانتداب .

ولقد كان « يوسف العظمة » واحداً من المحاربين السوريين الذين خاضوا المعارك . وأمضوا الليالى الطوال فى الخنادق ينتظرون الفجر ،فإذا هم يباغتون بهذا التآمر الغادر وقد عز عليه أن يقدر

لسوريا هذا المصير . وهى التى قدمت بالأمس وقود الثورة على المشانق شباباً ذا عزيمة ومضاء .

قدمت عبد الحميد الزهراوى ، وأحمد طباره وعبد الغنى العريسى وأحمد محمصانى الذى نادى فى قومه وهو فوق المقصلة .

« إننى أردت بكل قواى هذا التحرر . ولا أندم بحال على ما فعلت وإننى سعيد باعتبارى أول الضحايا ، وإنه من المحتم علينا أن نثور نحن العرب أبناء أعظم مدنيات العالم كلما فكرنا فيما صرنا إليه من ذلة ساقتنا إليها قبائل الأناضول المتوحشة . ولقد ضقنا ذرعاً بالظلم المزرى الذى يوقعه على رؤوسنا الأتراك . . . »

كانت هذه الكلمات تملأ قلب « يوسف العظمة » وعقله وعاطفته وهو يشهد الفصل الجديد من فصول المأساة بعدأن انتهت جيوش العرب من فتح سوريا بقيادة « فيصل » الذى بدأ فى إقامة حكومة وطنية ، غير أن فرنسا لم تلبث أن أرسلت حملة احتلت الساحل اللبنانى وأنزلت العلم عن دور الحكومة ثم تكشفت المؤامرة عن خطوة أخرى حين أعلن الحلفاء فى مؤتمر سان ريمو فى أبريل سنة ١٩٢٠ فرض نظام الانتداب على سوريا وتقويض العرش العربى ، ولم يلبث الجنرال غورو أن تحرك فى اتجاه سوريا لاحتلال دمشق وكان الموقف حرجاً . فقد أمر فيصل بتسريح الجيش قبل الموقعة بقليل .

هنالك لم يكن فى وجه الأحداث غيرُ رجل واحد . . . صمم على أن يموت دون أن يرى بلاده وهى تحتل من جديد . وتذوق مرارة الظلم على يد الفرنسيين بعد أن حاربت طويلا فى سبيل التخلص من الظلم على يد العثمانيين .

ذلك هو « يوسف العظمة » الذى كان فى حياته العسكرية مثلا للإيمان الصادق وقوة الإرادة ؛ فقد ولد فى دمشق ١٨٨٤ وتعلم بها ثم انتقل إلى الآستانة والتحق بالكلية الحربية عام ١٩٠٦ ، وتخرج فيها . تطوع فى الجيش العثمانى فحارب فى بلغاريا ورومانيا وعاد إلى الآستانة ثم رافق أنور باشا فى رحلاته إلى الأناضول وسوريا والعراق ولم يعد إلى دمشق إلا بعد الحرب فاختاره الأمير فيصل مرافقاً فرئيساً لهيئة أركان الحرب فى سوريا ثم تولى وزارة الحربية عام ١٩٢٠ وقد استطاع بعد المناداة بفيصل ملكاً على سوريا أن ينظم جيشاً وطنيا من عشرة آلاف مقاتل .

وجاء إنذار الجنرال (غورو) بتدخل الجيش وتسليم السكك الحديدية وقبول تداول النقد الفرنسى السورى وكانت شروط فرنسا قاسية ، وانقسم الرأى ؛ كان هناك من ينصح بالتسليم وحقن الدماء . وأرسل الملك برقية يخطر فيها الجنرال غورو بموافقته على الشروط . . . واستسلم فيصل وأوعز بتسريح الجيش .

وغدر الفرنسيون بسوريا بعد أن استسلمت وتقدمت الجيوش

الغازية ، تزحف نحو العاصمة . دون أن تصادف مقاومة .

ولكن « يوسف العظمة » كان وحده بين وزراء فيصل الذى لم يقبل التسليم ، كان يعلم أن غدر الفرنسيين لا يقف عند حد . وأنهم بالرغم من إبلاغهم الموافقة على شروطهم سيدخلون على أسنة الرماح ودماء أبناء الوطن .

وتحقق شعوره ، وزحف غورو وعندئذ لم يكن أمام يوسف العظمة سبيل ؛ وقد ثار الدمشقيون وغلا مرجل الوطنية فى صدورهم ، وغمرت المدينة موجة من الحماس ، وأعلن يوسف أنه ذاهب إلى الجبهة ونادى فى الشعب وسار على رأس المتطوعين ومعه ألف ومائتان من رجال القبائل ، وإن لم يكن هذا الجمع المتدفق إلى طريق ميسلون جيشاً بالمعنى الحربى الصحيح ، ولكنه كان يمثل انتفاضة شعب لا يقبل الذل ولا يرضى الهوان ، ولا ينتظر حتى يغزى فى عقر داره أو يستسلم لغاصب . لقد خرج المواطنون الأحرار يحملون ما استطاعوا حمله من سيوف ورماح أو بنادق أو فؤوس ، وسارت النساء مع الرجال جنباً إلى جنب .

أما « يوسف العظمة » فقد ذهب إلى صديقه ساطع الحصرى وقد صمم على أن يستشهد .

يقول ساطع الحصرى : «وبعد العشاء جاء يوسف العظمة يودعنا قائلا إنه سيتوجه إلى الجبهة ولكن قبل أن يغادرنا انتحى بى زاوية من الغرفة وقال لى بالتركية بصوت تخنقه العبرات :

أنا ذاهب . . . إنى أترك ابنتى "ليلى" أمانة لديكم ، أرجوكم ألا تنسوها » .

وكانت ابنته الوحيدة التى جاءت من الآستانة مع أمها قبل أسبوعين :

وكان معنى كلامه : أنه متوجه إلى الجبهة موطد العزم على ألا يعود منها أبداً .

ذهب ليواجه خصماً قديماً ، هو الجنرال غورو ؛ وذكر يوسف موقفه ذلك وهو على رأس المدفعية العثمانية فى غالبيولى ، عند ما حاول الحلفاء اقتحام الدردنيل وقد قذف بالقنبلة التى قطعت ذراع الجنرال غورو اليمنى . يا للأقدار . إنه اليوم وجهاً لوجه أمامه للمرة الثانية .

وقاتل يوسف مع أبناء سوريا قتالا رهيباً . وكبدوا الفرنسيين خسائر ضخمة ، كانوا يؤمنون بأنهم « الفرقة الانتحارية » التى لا بد منها لمواجهة هذا العدو الغاصب ، كانوا يؤمنون بأنهم إنما يستشهدون باسم الحرية ، وأنهم لن يحولوا دون دخول هذه القوة الغاصبة « دمشق » ولكنهم على هذا المعنى استشهدوا على أبواب المدينة الخالدة .

كانت خطة يوسف العظمة للدفاع عن دمشق تقتضى إنشاء سلسلة من الحصون حول قرية « مجدل عنجر » وكانت مجموع القوات المرابطة ثلاثة آلاف جندى نظامى مسلحين — ببطاريتين من المدافع — ثم سرحت هذه القوى فى ١٧ يوليو

فارتدت المدفعية إلى دمشق تاركة خطوط الدفاع الخلفية كما تفرق المشاة . فلما نادى يوسف العظمة بالجهاد يوم ٢١ يوليو انتشرت صرخته ونفخ فى بوق الحرب بعد أن اقتحم الجيش الفرنسى منطقة « مجدل عنجر » .

وتبعد ميسلون عن دمشق ٢٨ كيلو من جهة الغرب ، وقد ظلت القوى الفرنسية تتقدم دون مقاومة حتى أشرفت على منطقة ميسلون مساء ٢٣ يوليو وفى صباح ٢٤ يوليو أخذت المدفعية الفرنسية تطلق نيرانها بشدة على أماكن المتطوعين الذين زحفوا إلى الأمام وأصلوهم ناراً حامية ، وكان يوسف العظمة واقفاً على أحد التلول يرقب حركة القتال . حاول مرافقه العسكرى (ياسين الجابى) أن يحمله على التراجع وعدم تعريض جسمه لرصاص الأعداء فأبى يوسف ، فجاءته رصاصة من رشاشة فى صدره وتلتها رصاصات أخرى فسقط مضرجاً بدمه ، واستمر القتال بين الفريقين حتى الظهر ، وفقد العرب ثمانمائة شهيد بعد أن كبدوا الفرنسيين ثلاثمائة قتيل وغسل يوسف غلطته يوم وافق فيصل على تسريح الجيش .

سقط يوسف العظمة فى حومة الصراع والسلاح فى يده ، وحقق أمنية غالية كانت تملأ نفسه ، هى ألا يرى جيش العدو وهو يقتحم دمشق .

و يوسف العظمة فى موقفه هذا أشبه بمحمد عبيد فى معركة « التل الكبير » لقد وقف يوسف العظمة على أبواب دمشق مثلما

وقف محمد عبيد على أبواب القاهرة وقال للغاصبين : لن تمروا إلا على جثثنا وأشلائنا . . . وصدق الله وعده . . .

لقد عاش يوسف العظمة حياة عريضة، عاش مبتسماً متفائلا . ملىء الثقة بنفسه ، قوى العارضة ، نفاذ البصيرة أحبه رجال جيشه ، واندفعوا معه بقوة واستبسلوا ما وسعتهم البسالة والتضحية .

كان من طليعة شهداء الحرية والوحدة ؛ كتب سطراً فى ذلك الثبت الذى ضم عديداً من الشهداء الأبرار . . . الذين قدموا أرواحهم فى سبيل حياة الأمة العربية .

على عبد اللطيف

« المجاهد الذى قضى حياته بين السجن والمستشفى »

١٨٩٢ — ١٩٤٨

قال للضابط البريطانى : أنت دخيل
ومن العجيب أن تكون فى بلادنا وتتعدى
علينا بهذه الصفاقة

يقف « على عبد اللطيف » على رأس مرحلة من مراحل الجهاد الوطنى فى وادى النيل من أجل الحرية والكرامة ؛ هذه المرحلة التى حققت بعد أكثر من ربع قرن تحرر السودان من النفوذ الأجنبى فهو صاحب « اللواء الأبيض » والداعى إلى التجمع حوله . وهو عدو الإنجليز رقم واحد فى الخرطوم ، وهو الصابر المحتمل لظلمة السجن فى سجنى كوبر وواو أربعة عشر عاماً ، ولقسوة المستشفى فى العباسية عشر سنوات .

ذلك أن عبد اللطيف قد لقى أشد العنت فى سجنه ومرضه وواجه ظلمة الاعتقال وألم المرض وعذاب النفى وقسوة التشرد ووقف ، وهو الفرد الأعزل يدعو إلى تحرير الوطن فالتف حوله الكثيرون الذين ألفوا جماعة اللواء الأبيض فأزعجوا الإنجليز فى السودان عام ١٩٢٤ وما بعده .

وكانت مفاجأة خطيرة عندما استطاع شباب السودان الحصول على توقيع ٨٠٠ ألف من زعماء القبائل ورجال العشائر الذين يطالبون بخروج الإنجليز من ديارهم، وقد أفشى سر هذه الرسائل قبل وصولها إلى الباخرة التى كانت ستحملها إلى مصر، وألقى القبض على الرسول، وهب الشعب كله ينفس عن مشاعره فى صيحة واحدة مدوية للحرية، ودخل على عبد اللطيف السجن فلم يرده ذلك عن دعوته إلى الحرية؛ فلما خرج عاد إليه مرة ومرة لا يثنى الاضطهاد عزمه ولا ينل من ساعده.

فلما خيف من اتصال روحه بأرواح المجاهدين فى السجون والمعتقلات أبعد من الخرطوم إلى «واو» عاصمة بحر الغزال، وترك لحياة قاسية ومعاملة شاذة فى خلال سبع سنوات أخرى؛ غير أن المسغبة والتعذيب لم يرداه عن إيمانه الصادق. وكان ذلك على غير ما يرضى الاستعمار، فزيد التعذيب الذى خلّف عاهة ومرضاً واضطراباً فى النفس والعقل.

عندما هبت الثورة فى مصر عام ١٩١٩ كان ذلك نذيراً بالثورة فى السودان، فقد احتل الإنجليز السودان عام ١٨٨٨ بقوات مصرية باسم الحكم العثمانى وعقدت اتفاقية ١٨٩٩ التى تعطى بريطانيا كل الحق فى إدارة السودان مع شىء واحد، هو رفع العلم المصرى إلى جانب العلم البريطانى فوق مبنى الحكومة فى الخرطوم. أما الحاكم نفسه وأعوانه وأدواته ووسائله فكلها بريطانية يصدق عليها حاكم مصر دون أن يبدى مجرد الملاحظة.

وكانت محاولة ضخمة عنيفة فى سبيل القضاء على وحدة الوادى وتمزيق الرابطة بين شمال وادى النيل وجنوبه .

وكان على عبد اللطيف الطالب فى المدرسة الحربية فى الخرطوم يعرف ذلك عندما اندلعت ثورة ١٩١٩، لذلك نهض يعلن حركة التحرير من الاستعمار البريطانى ، مؤمناً بأن مصر والسودان وحدة لا انفصام لها ، وفى عام ١٩٢٢ كان قد بدأت دعوته إلى إسناد المناصب الكبرى فى الجيش إلى السودانيين ، كما دعا إلى الحرية والجلاء ، ووقعت تجمعات متعددة كونت « اللواء الأبيض » فى العاصمة والأقاليم ، وانطلقت المظاهرات السياسية تهتف بحياة مصر وسقوط الإنجليز ، وامتدت الثورة حيث خرجت الخرطوم فى يونية ١٩٢٣ فى مظاهرة جبارة ، وامتلأ سجن كوبر بأعضاء اللواء الأبيض ، كما خرج طلبة الكلية الحربية فى مظاهرة مسلحة ؛ عندئذ أغلق الإنجليز المدرسة واعتقلوا أساتذتها وطلابها وجردوهم من أسلحتهم .

وفى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤ قدمت بريطانيا إنذارها المعروف إلى مصر بإخراج الجيش المصرى من السودان بعد مقتل السردار .

وقامت على الأثر ثورة عارمة ، وتدفقت الجماهير فى الخرطوم إلى قشلاقات الجيش المصرى تهتف بسقوط الاستعمار وحياة مصر والسودان ، وقامت فرقة سودانية بكامل عتادها بقيادة البطل « عبد الفضيل الماظ » نحو قشلاقات اللواء المتمرد ، وبدأوا الزحف بمظاهرة طافت شوارع العاصمة ، وعندما وصلت

إلى مشارف المدينة تصدت لها القوات البريطانية ، فلم تلبث القوات السودانية أن قتلت عدداً من الجنود البريطانيين .

وهكذا اندلعت الثورة بعد ثلاثين عاماً على إخماد الثورة المهدية التى كانت تهدف إلى تحرير الوطن من استبداد الطغيان التركى والبريطانى الذى كان يحكم مصر .

وكان على عبد اللطيف هو حجر الرحى وقلب هذه الحركة ، فقد ولد فى مديرية وادى حلفا عام ١٨٩٢ لأب من رجال الجيش المصرى فى السودان ، وأتيح له أن يدخل المدرسة الحربية فى الخرطوم وتخرج عام ١٩١٤ والتحق بالأورطة الحادية عشرة السودانية برتبة ملازم ثان ، واستمر فى الخدمة حتى عام ١٩١٩ حيث اشتعلت الثورة فى مصر ، فتجاوب معها باشعال نار الثورة فى السودان ، وفى عام ١٩٢١ رفض الضابط على عبد اللطيف أن يؤدى التحية العسكرية لأحد الرؤوساء من المديرين الإنجليز وهو سائر فى سوق البلدة .

وقد أشار المؤرخ السودانى على أحمد صالح إلى موقفه هذا فقال : كان يركب حصاناً فلقيه إنجليزى هو (باتريك فرد) مدير النيل الأزرق ، فأخذ يحدثه بغلظة ومما قال له : أريد أن أشترى هذا الحصان ، فأجاب على : إننى لا أعمل بائع خيول . قال فرد : إن ثمنك لا يساوى ثمن الحصان . . .

فأجابه على عبد اللطيف على الفور : ماذا تقول أيها الدخيل ، إننى ضابط وليس من حقك أن توجه لى هذا الكلام ، ولا حتى

من حقك أن تقوله لأى مواطن، ومن العجب أن تكون فى بلادنا ثم تتعدى علينا بهذه الصفاقة . واتصل على عبد اللطيف بالضباط وقرر أن يحتج وأرسل تلغرافاً طالباً التحقيق مع الإنجليزى المعتدى .

ونشرت احتجاجات على عبد اللطيف فى « الأخبار » فى القاهرة ، جريدة أمين الرافعى ،وذعرت السلطات الإنجليزية ، وانتشر الخبر فى الخرطوم وبين صفوف الجيش .

ثم قبضت السلطات على « على عبد اللطيف » تمهيداً لمحاكمته .

وكان على عبد اللطيف قد وجه رسالته التاريخية التى تحدى فيها السلطة البريطانية فى السودان فاتهمها بأنها تعمل على فصل السودان عن مصر ، وأعلن مبادئه الوطنية وهى :

- اعتبار مصر والسودان وحدة واحدة لا تتجزأ .
- تحرير السودان من الاستعمار البريطانى .

وأعلن أن الإنجليز يسعون لفصل السودان عن مصر على الرغم من إرادة أهله ، وقال إن الذين خطبوا ووقعوا على عرائض الولاء لبريطانيا لا يمثلون إلا أنفسهم وأنهم يزيفون مشاعر السودانيين . وأن السياسة البريطانية لم تجلب للسودان أى منفعة تعود على أهله ، ووصف الحكم البريطانى بأنه حكم استغلالى استعمارى، ووجه إليها اتهامات ستة :

- أنها أثقلت كاهل الأهلين بالضرائب .
- أنها لم تنصف سكان المديريات ولا سيما أهل الجزيرة فقد أخذت أراضيهم وسلمتها للشركات الإنجليزية .
- احتكرت محصول البلاد الرئيسى (القطن والسكر) .
- احتكرت جميع الوظائف الممتازة وحرمتها على أهالى البلاد المتعلمين الأكفاء .
- عمدت إلى صرف أموال البلاد جزافاً .
- التعليم ناقص فى كلية غردون .

وكانت هذه الرسالة علامة من علامات اندلاع الثورة .

وقد واجهت الحكومة الحركة بالاضطهاد والقمع ؛ فأوقف عن عمله وقدم للمحاكمة أمام محكمة جنايات الخرطوم بعد أن قبض عليه فى يونية ١٩٢٢ وحكم عليه بالسجن سنة كاملة .

وعندما عادت الحرية إلى على عبد اللطيف بخروجه من السجن بدأ العمل من جديد فألف عام ١٩٢٣ جمعية اللواء الأبيض بالسودان ، حيث انتشرت الدعوة إلى مقاومة الاستعمار البريطانى والانضمام إلى مصر فى حركتها الوطنية وتحقيق الجلاء عن وادى النيل .

وعندما تألفت الوزارة الدستورية فى مصر عام ١٩٢٤ ازدادت الحركة الوطنية السودانية اتساعاً وأعربت الحركة عن التضامن مع مصر فى توثيق أواصر الوحدة بين مصر والسودان ، وكانت بريطانيا ماضية فى سبيل فصل السودان عن مصر .

وتحركت المظاهرات المعادية للإنجليز ، وبدأت بمظاهرة مفاجئة فى ١٩ يونيو ١٩٢٤ قادها عمر دفع الله . وواجهت الحكومة السودانية المظاهرات العدائية بمنتهى القسوة ، فاعتقلت وسجنت وبطشت بالكثيرين وحوكم على عبد اللطيف للمرة الثانية بتهمة التحريض على الثورة بالسجن ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة ، ثم قدم للمحاكمة مرة ثالثة بتهمة قلب نظام الحكم . وبلغ جملة الأحكام الجديدة عشر سنوات .

ولم تتوقف الحركة من بعده أو تمت :

فلقد اتسعت الحركة برغم ذلك وشملت كل أقاليم السودان الشاسعة المترامية ، وفى السجن لم يتوقف على عبد اللطيف عن العمل ، فقد تمكن ومعه عبد الأمين وصالح عبد القادر وحسنى شريف من احتلال سجن كوبر بعد انضمام باقى المسجونين إليهم مدة ثلاثة أيام ، ثم حوكموا بعدها فحكم عليهم بالسجن المؤبد ، وأرسلوا إلى سجن واو فى مديرية بحر الغزال ، وأمضوا مدة العقوبة هناك فى سراديب لا نوافذ لها ، وقد صاحب السجن عقوبات مريرة أثرت فى حالة على عبد اللطيف وعقله فأحالته إلى هيكل عظمى ، وفى سجن «كوبر» وسجن «واو» بعد أن حول الحكم عليه بالإعدام إلى السجن المؤبد . كان الهدف إطالة تعذيبه وإذاقته ألوان الاضطهاد ، فقد ضرب بالجردل على رأسه فكان لهذه الضربة أثرها البالغ فى صحته .

وفى سجن «واو» عومل أقسى معاملة وكاد يقضى عليه نتيجة

للأوبئة والأمراض وسوء المناخ .

وفى عام ١٩٣٧ أعلن الإفراج عن على عبد اللطيف نظراً لحالته الصحية ، ولكنه كان إفراجاً مشروطاً ، فقد نقل من السجن فى كوبر إلى المستشفى فى العباسية ، فنقل إلى القاهرة فجأة حتى لا يستقبل استقبالا حماسياً ، وأنزل بمستشفى الأمراض العقلية بمعاش خمسة جنيهات ، وقد بقى فى المستشفى حتى توفى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٤٨ ولم يكن فى الإمكان إخراجه لأن الإنجليز كانوا يريدون بقاءه مدى الحياة .

وقد تحدث على عبد اللطيف فى القاهرة عند وصوله إليها فقال : لقد أتعبتنى القيود الحديدية ، وشق على أن آكل الخبز الأسود فضلا عن العمل الشاق ، وقد سمح له فى المستشفى بأربعة كتب . القرآن ، ومقدمة ابن خلدون ، وجواهر الأدب ، وأدب الكاتب ؛ وهكذا قضى حياته لم يهنأ بها ولم ينعم بأسرته وأولاده ولم يخلف قرشاً واحداً .

ومما يرويه المؤرخ السودانى على أحمد صالح أنه فى خلال محاكمة على عبد اللطيف استطاع زملاؤه إرسال برقية إلى مصر ، دون علم الحكومة البريطانية للدفاع عنه .

ورد مرقص فهمى نقيب المحامين باستعداد المحامين المصريين للدفاع عن على عبد اللطيف ، وسافر أربعة منهم إلى الخرطوم غير أن بريطانيا منعتهم بالقوة فى الشلال ؛ فأبرقوا إلى السودان . وأمكن توصيل البرقية الواردة من مصر سراً ، بمنع المحامين ، إلى

على عبد اللطيف فى سجنه .

فلما عقدت المحكمة وأحاطت الألوف بأسوار المحكمة فى مظاهرة وطنية رائعة، وقال له كبير القضاة : دافع عن نفسك لأن المحامين المصريين رفضوا الدفاع عنك .

فصاح بصوت جهورى : إننى أرفض الدفاع لأن المحكمة غير عادلة وغير قانونية .

قال القاضى : ولكن المحامين رفضوا الدفاع عنك .

قال على عبد اللطيف : هذه مغالطة يا سيدى ، إنه تلفيق ظاهر . وأبرز البرقية المرسلة من نقابة المحامين وقرأها بصوت عميق ولوح بها للجماهير وصعق القاضى (كستر) ووضع بقية الأعضاء رؤوسهم تحت المنصة وران عليهم الخجل وصفقت الجماهير . . .

وانطفأ سراج على عبد اللطيف بعد حياة قاسية عام ١٩٤٨ بعد أن مضى فى السجن والمستشفى ربع قرن من زهرة حياته ؛ ويقول الذين عرفوا على عبد اللطيف إنه كان حاد الذكاء ، قوى الإيمان بوطنه ووحدة وادى النيل . وقد أتيح له ثقافة واسعة درس خلالها كفاح المجاهدين فى سبيل تحرير أوطانهم ، وقد تأصلت فى نفسه كراهية لا حد لها لبريطانيا والاستعمار ، وكان يطمع فى أن يحقق للسودان حريته ، لولا أن الاستعمار إذ ذاك فى إبان سطوته وغدره ، فلم يلبث أن حطم القوة المتدفقة تحطيماً .

ولكن روح على عبد اللطيف لم تمت ؛ فقد نشأ جيل جديد من شباب السودان سار على نفس الهدى وجاهد وكافح حتى حقق لبلاده الحرية .

توفى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٤٨

عمر المختار

« الرجل الذى حاربته إمبراطورية »

١٨٦٢ — ١٩٣٠

« قاتلت إيطاليا من أجل وطنى ودينى »

تقدم إلى حبل المشنقة ، ثابت الخطى ، على وجهه نور ، وفى مظهره صلابة ، وهو يردد الشهادتين فى صوت جهير ، حتى نفذ فيه الجلادون الحكم . . . وكان المستعمرون الإيطاليون قد حشدوا له فى ذلك اليوم ، فى منطقة « سلوق » أهل برقة وبنى غازى وعدداً كبيراً من الأهالى لا يقل عن عشرين ألف نسمة ليروا هذا البطل وهو يصرع .

وعندما وجدوا أن عمر المختار لم يمت أعادوا عملية الشنق مرة أخرى ، وما إن أتموها حتى نقلوه مسرعين إلى مقبرة الصابرى فى سيدى عبيد ببنى غازى ، وأقاموا حراسة مشددة حول قبره .

وكانت الكتيبة السابعة من الجيش الإيطالى قد أسرت « عمر المختار » فى اليوم السابق لذلك ، حيث حوكم محاكمة صورية هزيلة ، فجىء به إلى قاعة الجلسة مكبلا بالحديد وحوله الحراس . من كل جانب ، ووقف يتحدث أمام المحكمة فى جرأة وقوة إيمان .

وبعد استجوابه ومناقشته وقف المدعى العمومى فطلب الحكم بالإعدام ، وكانوا قد عهدوا إلى أحد الضباط الإيطاليين بالدفاع عنه فقال :

« إنه يطلب حكماً أشد هولا من الإعدام ، هو السجن مدى الحياة نظراً لكبر سنه وشيخوخته» . ثم نطق القاضى بالحكم عندئذ قال عمر : إنا لله و إنا إليه راجعون .

* * *

وقد كان الجنرال جرازيانى الحاكم الإيطالى حفيًّا بأن يلتى عمر المختار بعد أن أزعج الإيطاليين وأقض مضاجعهم وجرت بينهما بعد اعتقاله المحاورة التالية :

- لماذا قاتلت الحكومة الإيطالية بهذه الشدة . ؟
- قاتلتها من أجل دينى ووطنى .
- هل كنت تؤمل أن فى إمكانك طردنا من برقة ؟
- لا ، كان هذا مستحيلا .
- ماذا كنت تتوخى إذن ؟
- لم أكن أتوخى شيئاً ، كنت أقاتل وكفى ، تاركاً النتيجة فى يد القدر .
- لكن الكتاب الذى تؤمن به لا يأمر بمحاربة الكفار إلا إذا كان هناك أمل فى النصر ؟
- نعم .

ـ إذن لماذا حاربت ؟
ـ حاربت من أجل دينى ووطنى .
ـ لا ؛ لقد كنت تحارب من أجل السنوسيين ؟
ـ أبداً .
ـ هل أمرت بقتل الطيارين : هوبر وبيابى ؟
ـ نعم : الحرب هى الحرب .
ـ ما هو الوقت الذى تحتاج إليه لتأمين استسلام ثوار الجبل بما لك من السلطة عليهم . ؟
ـ لا أستطيع أن أفعل ذلك أبداً .
ـ هل كنت تعتقدأن الله يحميك لأنك تدافع عن قضية عادلة؟
ـ نعم .

ولما عقدت المحكمة فى ١٥ سبتمبر ١٩٣١ وجهت إليه الدعوى باعتدائه على سلامة الدولة وأمن البلاد ولقطعه الطريق .

قال القاضى : هل أنت رئيس الثوار ضد إيطاليا ؟

قال : نعم .

هل حاربت الدولة ؟

قال : نعم .

ـ هل شهرت السلاح فى وجه قوات الدولة ؟

قال : نعم .

ـ هل اشتركت فى القتال اشتراكاً فعلياً ؟

قال : نعم .

هل أمرت بقتل الجنود الذين كانوا يحرسون العمال فى أثناء إنشاء الطرق ؟

قال : نعم .

هل أمرت بالغزو واشتركت فيه ؟

قال : نعم .

هل أمرت بتحصيل الأعشار من الناس ؟

قال : نعم .

وقد جيء به إلى المحكمة مكبلا بالحديد واستمرت مناقشته ساعة وربع الساعة فكان جريئاً يصحح الوقائع للمحكمة .

وكان عمر المختار قد أقض مضاجع الإيطاليين خلال عشرين عاماً كاملة بغزواته وتكتيل القوى ضدهم ، وقد أربى على الثمانين من عمره ، بل إنه ظل سبع سنوات كاملة لا ينزل عن جواده مرابطاً فى الجبل الأخضر . وكان أشجع المحاربين بشهادة خصومه .

* * *

وقد بدأ عمر المختار معاركه عام ١٩١١ حين ضرب الطليان بمدافعهم موانى برقة فاحتلوا (طبرق) فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١١ ثم نزلوا (درنة) فى ١٧ أكتوبر ، وبنغازى فى ١٩ أكتوبر . وسرعان ما انضم عمر إلى المجاهدين حيث أمر قبيلة العبيد بالاستعداد للحرب وتبعه فى ذلك بقية شيوخ الزوايا

واستمر – والسنوسيون تحت قيادته يضيق الخناق على العدو .

وظل عمر المختار مع مجاهدى السنوسية يواجهون أعمال العدوان ويقاومونه شبراً بشبر ويلتحمون فى معارك كبيرة فينتصرون وهم قلة ، وذلك خلال تسعة أشهر حتى سلمت تركيا ليبيا إلى إيطاليا فى ١٢ يوليو ١٩١٢ .

ومع هذا فإن الجهاد ضد الإيطاليين فى ليبيا لم يتوقف لحظة واحدة . وكان « عمر المختار » أبرز المجاهدين ، فإنه لم يلبث أن تسلم قيادة المجاهدين فشكل جيشاً وطنياً كان غاية فى اليقظة ، إذ طالما أوقع بالطليان وانقض عليهم وغنم منهم أسلاباً كثيرة وأسلحة وعتاداً . وقد ظل هذا الكفاح متصلا حتى نشبت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس ١٩١٤ .

* * *

وتجدد القتال عام ١٩٢٣ وكان عمر المختار قد وصل إلى الجبل الأخضر بعد أن نظم أدوار المجاهدين واستمرت المناوشات بين رجاله وبين الإيطاليين فى عمليات حربية خفيفة .

ولما عجزت إيطاليا عن تفريق صفوف المجاهدين عمدت إلى قطع الإمدادات عنهم وحصرهم فى منطقة الجبل الضيقة فاتجهت إلى احتلال الجهات القريبة من برقة .

ولكن هذه المحاولات لم تخمد حركة المقاومة فقد ظل عمر المختار يواصل غاراته على درنة وما حولها حتى أرغم الطليان على

الخروج بجيوشهم فى ٢٢ أبريل من درنة وشحات والمرج وبنى غازى، وسرت ومراوة، واشتبك معهم فى معركة استمرت يومين انهزم فيها الطليان وتركوا وراءهم المؤن والذخائر .

وقد أبدى عمر المختار صنوفاً من أساليب الحرب البارعة فى الانسحاب والتطويق وإيقاع الإيطاليين فى الكمائن التى ينصبها لهم بصورة مذهلة أرهبت العدو وجعلته يحسب حساب المجاهدين .

ومضى أهل القبائل القاطنة فى الجبل ، تنضم إلى صفوف المحاربين ، واستطاعت إيطاليا فى ذلك الوقت أن تضغط على مصر بواسطة بريطانيا بإدخال (جغبوب) فى الحدود البرقاوية وذلك حتى تتمكن من حصار الجبل الأخضر ، وأعدوا حملة عسكرية كبيرة تتألف من ألفين من الجنود و ٨٠ سيارة مصفحة معدة بالمدافع الرشاشة وذلك لدخول جغبوب التى كان أهلها قد رحلوا عنها فاحتلوها فى ٨ فبراير سنة ١٩٢٦ وحاول الإيطاليون إغراء (عمر المختار) حيث عرضوا عليه عروضاً سخية محاولين تمنيته بالجاه العريض ، ولكنهم عجزوا عن خداع الرجل المؤمن بوطنه ، وجرت محاولات مع أعوانه من المجاهدين لتفريق الصف ولكن هذه المؤامرة فشلت أيضاً .

فى هذه الفترة من الكفاح كانت قوات عمر المختار تزداد عتاداً وعدداً حتى بلغت حوالى ألف وخمسمائة ، منها أربعمائة من الفرسان ، ومضى يشتبك فى معارك دامية أصابت الإيطاليين بخسائر فادحة .

وجرت محاولات متعددة لحصر نشاط عمر وقواته ، ولكن بعد أن التحمت القوات الإيطالية فى معركة دامية استمرت خمسة أيام انهزم الطليان فيها شر هزيمة وتقهقروا تاركين مؤنهم وذخائرهم .

ومرة أخرى حاول الإيطاليون محاصرة عمر وقواته . وانقض المجاهدون على الطليان وأرغموهم على التقهقر واستأصلوا عدداً كبيراً من القوات الإيطالية .

ولكن الطليان استطاعوا بعد احتلال جغبوب أن يقطعوا ما بين المجاهدين و بين مصر من ناحية ، و بينهم و بين فزان والكفرة ، حيث كانت تهرب إليهم الأسلحة والمؤن .

وأصبح عمر المختار وأصحابه فى شبه عزلة . ولكنه لم يعرف اليأس ، فقد ظل يحمل عليهم حملات جبارة . حتى اشتبك معهم فى معركة ضخمة استمرت يومين وانتصر عليهم .

وفى أكثر من موقف حالف النصر (عمر المختار) ورجاله ... وأنزل بالطليان خسائر جسيمة ، ورأت إيطاليا أن الموقف بات مثيراً لليأس . . . عندئذ أعلنت توحيد القيادة فى طرابلس و برقة وعين الماريشال (بالبو) حاكماً جديداً .

* * *

وبدأت المعركة الحاسمة مع المجاهدين بقيادة عمر المختار وكان أول ما سعى إليه بالبو مفاوضة عمر المختار . وتقدم المختار بطلباته (مارس ١٩٢٩) .

إعلان عفو عام . الاتصال بالسيد إدريس السنوسى فى مصر ومفاوضته والسماح له بالعودة . أن لا تتدخل إيطاليا فى أمور الدين . السماح بجباية الزكاة الشرعية من العرب . أن تكون اللغة العربية لغة رسمية معترفاً بها فى دواوين الحكومة . أن يكون الموظفون من العرب والإيطاليين . فتح مدارس خاصة تدرس فيها علوم اللغة العربية والإسلام . ألا يحرم المواطنون من التعليم العالى . إلغاء القانون الذى وضعته إيطاليا والذى ينص على عدم المساواة فى الحقوق بين الوطنى والإيطالى إلا إذا تجنس الأول بالجنسية الإيطالية . أن تكون إدارة الأوقاف تحت هيئة إسلامية ورئيسها مسلم . أن يكون للأمة رئيس تختاره بنفسها . أن تكون لها الحرية فى حمل السلاح على اختلاف أنواعه . وفى جلبه من الخارج إذا امتنعت إيطاليا عن بيعه لنا .

* * *

وحاول الإيطاليون إغراء عمر المختار براتب ضخم نظير ذهابه إلى الحجاز أو مصر أو البقاء فى برقة ، فرفض عروضهم . وراوغت إيطاليا فى عروض عمر المختار وعرضت عقد هدنة لمدة شهرين ، وقال بالبو إنه على استعداد لقبول عودة السنوسى إلى برقة . ورفض عمر توقيع الاتفاق مع خذل مطالب المجاهدين الوطنية أو التسليم للطليان أو إلقاء السلاح .

وكانت إيطاليا تهدف بهذا كله إلى كسب الوقت حتى تشن هجوماً نهائيًّا يقضى على مقاومة عمر المختار ومن معه .

وطلب المختار مهلة إلى موعد حدده وانتظر أن يجيئه رد (بالبو) دون ـــ جدوى ، عندئذ أصدر نداءه المشهور إلى أبناء وطنه فى ٢٠ أكتوبر ١٩٢٩ بين فيه خداع الإيطاليين ونقضهم للهدنة وكشف عما دار بينه وبين الإيطاليين من مفاوضات ، وذلك حتى لا يدب الوهن فى الصفوف المجاهدة ودعا إلى العمل للذود عن الكيان و بذل الدماء .

قال : « رأيت أن أخوض غمار الحرب ولا أركن إلى أى محادثة أو واسطة إلا ما اتفقت عليه الأمة وأودعته ثقتها . وأن غرض الحكومة الإيطالية مما تذيعه من أكاذيب هو بث الفتن والدسائس لتفريق شملنا وتفكيك أواصر اتحادنا ليتم لها الغلبة علينا .

ونحن نوايانا شريفة ، ولا نقصد إلا المطالبة بالحرية . وإن مقاصد إيطاليا القضاء على كل حركة قومية تدعو إلى تحرير الشعب الطرابلسى .

وإن سبيل الحرية هو بذل كل مرتخص وغال . وهيهات أن يصل الطليان إلى غرضهم مادامت لنا قلوب نعرف أن سبيل الحرية يبذل فيه كل مرتخص وغال » .

وكأنما أحاط عمر المختار بنوايا الطليان التى كانوا يبيتونها فإنهم لم يلبثوا قليلا حتى بدأت طائراتهم تغير على منطقة تجمع عمر ورجاله ، وتلقى عليهم القذائف ، و بدأ النضال من جديد .

وأذاق (جرازيانى) الليبيين أشد ألوان العذاب ، فقد أقام

المعتقلات التى امتدت من العقيلة إلى السلوم حيث حشد فيها كل وطنى ، وصادر أملاك الزوايا السنوسية وأوقافها وضيق الحصار على المجاهدين، وكان يحملهم فى الطائرة ويقذف بهم من الجو على قمم الجبال .

ولكن المجاهدين لم يرتاعوا وثبتوا مع زعيمهم فى الانقضاض والعمل . غير أن جرازيانى تمكن من احتلال منطقة القايدية بأجمعها حيث كانت هناك ذخيرة للمجاهدين .

وغير عمر المختار دائرة عملياته وهاجم مراكز الطليان . واستطاع أن يديل منهم ويحصل على غنائم كثيرة . والتحم الإيطاليون مع المجاهدين فى مناوشات ، ثم حاصروا المجاهدين الذين اشتبكوا معهم فى معركة (كرسة) التى استشهد فيها الفضيل أبو عمل من خيرة قواد المختار .

واشتبك المجاهدون مع الإيطاليين فى معارك عنيفة متعددة فى الجبل الأخضر ثم زحف الطليان لاحتلال واحة الكفرة ، وقاتل المجاهدون بشجاعة وبسالة نادرتين ، وبسقوط الكفرة انتهت المقاومة الفعلية ضد الطليان فى برقة . وذلك بعد أن سقطت (فزان) قاعدة المقاومة فى طرابلس .

* * *

ومع ذلك فقد ظل عمر المختار يقاوم حتى أسر فى مجموعة من المجاهدين بالقرب من قرية سلطنة حيث نقل فى مركب حربى إلى (بنى غازى) ولم يسلم المختار نفسه بل قاتل حتى

نفدت ذخيرته وقتل جميع من بقى من رجاله . كما قتل حصانه ووقع عليه فتمكن من التخلص من تحته وظل يقاتل القوة وحده إلى أن جرح فى يده وتكاثر عليه الأعداء وغلب على أمره وأخذ أسيراً .

وقال عمر المختار : إن وقوعى فى الأسر لايضعف مقاومة ليبيا للاستعمار ، وإننى قد نقلت القيادة إلى من هم بعدى . ولكم الآن أن تفعلوا بى ما تشاءون وليكن معلوماً أنى ما كنت فى يوم من الأيام لأسلم إليكم طوعاً .

* * *

وكان عمر المختار من قبيلة المنفة العربية ولد عام ١٨٦٢ واتجه إلى العلم والجهاد، وكانت شخصيته الواثقة المؤمنة الرضية تحمل علامات الجد والكفاح والشجاعة منذ مطالع شبابه . وقد اختير رئيساً لزاوية القصور قبل بدء معارك التحرر ، فكان أول من لبى نداءها . وقد عرف بقوة تأثيره فيمن حوله . وسلطانه النفسى على أتباعه الذين كانوا يحبونه و يفتدونه .

وكان من أساليب عمر المختار فى الحرب أن يقوم باستكشاف مواقع العدو وتبين حركاته ومعرفة ما عساه أن يقوم به من هجوم عليهم على حين غفلة .

ويعد عمر المختار من أعظم أعلام التحرر العربى وأبرز شهداء القومية العربية .

إبراهيم هنانو

« المجاهد الذى كشف خدعة الاستعمار »

١٨٦٩ — ١٩٣٥

« إن الحلفاء متآمرون على سوريا والوطن
العربى ، إن علينا أن نفتش عن طريق
آخر نحرر بواسطته البلاد »

نموذج لقلة من المجاهدين ، فطموا أنفسهم عن المطامع الشخصية ، ووهبوا حياتهم خالصة لأوطانهم وأمتهم . وصاموا عن كل رغبة أو غاية . ولم يجعلوا للحياة ومتاعها وترفها حساباً لديهم ، شبيه فى هذا بمحمد فريد فى مصر الذى أنفق كل ما يملك — وهو الكثير — فى سبيل وطنه وقضية بلاده، أما إبراهيم هنانو فقد أحرق كل ما يملك من دور — وضياع ومتاع — حتى إذا وقع فى قبضة الأعداء لا يضيق بشىء ولا يصيبه الوهن .

وقد تنبه فى ذكاء إلى مؤامرات الاستعمار الفرنسى منذ اللحظة الأولى، وكشف فى صراحة عن المناورة فلم يلبث — والمؤتمر السورى منعقد ليعلن قيام الدولة العربية عام ١٩٢٠ — أن قال كلمته :

« إن الحلفاء متآمرون على سورية والوطن العربى ، وهذه المؤتمرات السياسية لن تجدى فتيلا . وعلينا أن نفتش عن طريق آخر نحرر بواسطته البلاد ونجنبها طريق المعاهدات »

وكان هنانو قد رأى إخوانه وهم يستشهدون فوق أعواد المشانق التى أطلقوا عليها « أراجيح الأبطال » وشهد الزحف العربى وهو يحرر تركيا من القوات التركية فى الوقت الذى كان العرب ينتظرون قيام الدولة العربية بعد مفاوضات (حسين — مكماهون) ورأى كيف خان الحلفاء العرب وخدعوهم . فما إن وضعت الحرب العالمية أوزارها حتى تكشف الموقف عن تمزيق الدولة العربية الموعودة بين فرنسا وبريطانيا ، ورأى كيف وقف (غورو) على قبر صلاح الدين فى دمشق ليقول :

ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين .

وسمع (اللنبى) وهو يدخل فلسطين ويصيح :

الآن انتهت الحروب الصليبية .

وكان الأمير فيصل قد دخل دمشق على رأس الجيش العربى فى أول أكتوبر ١٩١٨ بعد أن حرر شبه الجزيرة من قوات تركيا ، ودخلت قبله وفى أثره قوات الحلفاء فرنسا وإنجلترا ، وأذاع فيصل بعد دخوله بياناً رسمياً شكر فيه عرب سوريا وأعلن تشكيل حكومة عربية دستورية مستقلة . وسافر فيصل إلى باريس لحضور مؤتمر السلام باسم الحكومة العربية ؛ وكانت

المؤامرات قد سبقته فقد كان الاتفاق أن تحتل فرنسا « سورية » .

وفى مطلع مارس (آذار) عام ١٩٢٠ اجتمع المؤتمر السورى فأعلن استقلال سوريا بحدودها الطبيعية ، وبايع فيصل ملكاً عليها ، ورفضت فرنسا وبريطانيا الاعتراف بالدولة الجديدة .. ولكن مؤتمر سان ريمو الذى عقده الحلفاء قرر انتداب فرنسا على سورية ولبنان ، ولم يلبث الجنرال غورو أن وجه إنذاره المعروف إلى الحكومة السورية فى ١٤ يوليو ١٩٢٠ وتابعه بزحف الجيش الفرنسى على دمشق .

وجرت معركة ميسلون فى ٢٤ يونيو (تموز) واستشهد يوسف العظمة وكان ذلك علامة العمل عند إبراهيم هنانو .

وكان منذ صيف ١٩١٩ قد اشتغل بجمع المال والسلاح ورأس جمعية الدفاع الوطنى ويمد المناوشين فى الساحل وفى أنطاكية . فلما وقعت ميسلون غادر حلب إلى معاقل الجبال نافخاً فى بوق الثورة ومن جبل (الزاوية) أذاع نداءه الوطنى الذى ألهب مشاعر السوريين .

« أيها الفلاحون والقرويون . . . يا بنى وطنى ويا أبناء سوريا الأشاوس ، يا أباة الضيم ، من قمة هذا الجبل الأشم أستصرخ ضمائركم ، وأقول لكم إن بلادنا العزيزة أصبحت اليوم **محتلة مهددة من قبل المستعمرين ؛ أولئك الذين اعتدوا على قدسية استقلالنا وحرياتنا قاصدين من وراء ذلك فرض**

الاستعمار الجائر والانتداب الممسوخ اللذين قاومهما العرب أعواماً كثيرة وسفكوا الدماء الذكية فى سبيل الحرية والاستقلال التام ، وهأنذا أتقلد السلاح للذود عن حياض الوطن الغالى ، والاستقلال الثمين الذى نحن له الفدى . فيا أبطال الوغى ويا حماة الديار . . . إلى الجهاد . . . . إلى النضال . . . عملا بقول الله تعالى : (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) .

وقد بدأت الثورة فى ثلاث مناطق على ارتباط لكل منها . فقد اعتصمت القوى الوطنية فى الجبال وأخذت تلقى الحمم على قوافل الفرنسيين . وقد بلغ عدد معاركها مائة وسبع عشرة معركة ممــا ملأ قلوبهم رعباً وهولا . وكبدهم ضحايا كثــيرة . حتى اضطروا إلى مفاوضة هنانو بشأن عقد الهدنة ومبادلة الأسرى .

غير أن هنانو أحس عند مفاوضة الجنرال (غريو) أنه إنما يريد التغرير بالحركة وخداعها . فلم يلبث أن قال له :

« إن حياتنا ليست بذات بال أمام حياة الوطن . فنحن لم نقم يا جنرال بحركتنا هذه لمكسب شخصى أو غنم مادى . إننا قمنا لنحرر بلادنا المقدسة من الاستعمار ، ولن يثنينا عن عزمنا وعد أو وعيد » .

واستأنف القتال ولقى الفرنسيون مزيداً من الضحايا . غير أن الفرنسيين عمدوا إلى قطع الإمدادات التى كانت تصله من تركيا وغيرها من الجهات ، واستقدمت قوات كبيرة لمحاصرته

فرأى أن يخرج من سوريا فى يوليو ١٩٢٠ فى أربعين من ضباطه مستخفياً بحثاً عن الأسلحة . ورصدت السلطات الفرنسية الجوائز لمن يقبض عليه .

وفى جبل الشمر ١٦ تموز ١٩٢٠ أطبقت القوات الفرنسية تريد القبض عليه فكانت معركة (مكسر الحصان) حيث قتل فريق من رجاله وأسر فريق ، على حين أوغل هنانو على فرسه هائماً فى البادية ومعه أحد المجاهدين .

وقد واجه فى هذه المرحلة أهوالا وعنتاً . ورفض الأمير عبد الله فى الأردن مساعدته ، فاتجه إلى فلسطين لمغادرتها إلى سوريا ، هنالك أسرعت فرنسا وعقدت مع المفوض السامى الإنجليزى فى فلسطين معاهدة سرية (بتبادل المجرمين) وذلك لتسليم هنانو إليها واعتباره مجرماً عادياً .

وبينما (هنانو) فى فندق القدس فى ١٣ أغسطس ١٩٢١ إذا القوات تحاصر الفندق وتلقى القبض عليه .

واندلعت ثورة الشعب عندما علمت بخبر اعتقاله . واعتدى المتظاهرون على قائد إنجليزى فى القدس ، وخشيت السلطات الإنجليزية خطر اتساع الحركة فأسرعت بتسليمه إلى السلطات الفرنسية على الحدود السورية .

وكانت هذه نهاية ثورة هنانو التى دامت عشرين شهراً والتى جمعت أكثر من ثلاثين ألف مجاهد ، ودكت عدداً من معاقل الجيش الفرنسى . وسيطرت على مدينة ادلب وقضاء

المعرة وجسر الشاغور، والتي جاهد فيها هنانو جهاد الأبطال حتى كانوا يطلقون عليه لقب « المتوكل على الله » .

* * *

وفى حلب ثار الشعب من أجل هنانو، وأعلن : أن فرنسا إذا مست شعرة من هنانو فإن البلاد ستلتهب وكانت محاكمته من المواقف التاريخية الوطنية الهامة .

وبدأت المحاكمة (١٥ آذار « مارس » ١٩٢٢) وكان هنانو خلالها غاية فى الشجاعة والرجولة . وقال لقضاته فى نبرات العزم والصدق :

« أنا لا أعد مجرماً . لأن أمرنا سياسى صرف . أما تشكيل العصابات فلم تكن بقصد الفتك والنهب، وإلا لقاومنا الشعب وسحقنا سحقاً .

فقواتنا إذن مؤلفة من أفراد الشعب صاحب الحق والسلطان . إننى متهم سياسى فقط ولو كنت مجرماً عادياً كما يقولون لما فوضنى ممثلكم الجنرال غريو بشأن عقد هدنة ومبادلة الأسرى، ولما عقدت معى حكومة أنقرة التى تعترفون بها اتفاقاً، لأن الحكومتين الفرنسية والتركية أسمى وأجل من أن تتنازلا لمفاوضة مجرم شتى، ونحن لم نعمد إلى الوسائل الحربية إلا للدفاع عن أنفسنا .

إنى ثائر وطنى . أدافع عن وطنى » .

قال رئيس المحكمة : إذن فأنت تتنصل من المسئولية .

قال هنانو : إن الرجل الذى قاوم الانتداب الفرنسى لن يتنصل من مسئولية تعود تبعتها عليه .

قال رئيس المحكمة : ومن اضطرك إلى أن تحارب .

قال هنانو : عندما أهاجم أغدو مضطراً لأن أدافع عن نفسى .

وتقدم الشهود سعد الجابرى وعبد الرحمن الكيالى وعبد الوهاب طلسى فشهدوا بوطنيته ومبادئه السامية وثقافته وذكائه .

ووقف النائب العام الفرنسى وقال :

لو كان لإبراهيم هنانو سبعة رؤوس بعدد جرائمه السبع لطلبت إعـــدام رؤوسه السبعة ولكن لا يملك إلا رأســاً واحداً .

ووقف فتح الله صقال المحامى فقال : ليس ثمة ما يدعو إلى اعتبار هنانو مجرماً عادياً أو مجرماً سياسياً . إن ما دار بين هنانو وجيش فرنسا هو حرب (أصولية) وإن قائد الحملة الفرنسية قابل هنانو للاتفاق معه على الهدنة وتم عقد هدنتين متواليتين بينهما تبادلا فيهما الأسرى .

وقال إن أهم تهمه السبع تشكيل عصابة من الاشيقاء والواقع أن ركنى جريمة الاتفاق الجنائى غير متوفرين فى القضية ؛ ذلك أن هنانو كان قائداً لثورة اعتنق رفاقه مبدأها ، ولا بد من أن ينجم عن كل ثورة تعديات على الأشخاص والأموال .

وصدر الحكم بالبراءة فى ٢٥ مارس ١٩٢٢ فقد اعتقد

الفرنسيون أن أى حكم عليه سيؤدى إلى ثورة عارمة لن يستطيعوا الوقوف فى وجهها . وعند ما أفرج عنه وركب عربة تجرها الخيول نزع الشعب الحصانين وجر العربة بدلا منهما . وكان النساء يزغردن على طول الطريق الممتد من السجن إلى الدار التى لم تكن بعيدة عنه وأمطرت الجماهير موكبه بماء الزهر وعطر الورد .

ولد إبراهيم هنانو عام ١٨٦٩ فى كفر حارم بحلب ونشأ فيها وتلقى العلم فى المدرسة الملكية للحقوق والإدارة بالآستانة وتقلب فى عديد من المناصب فى العهد العثمانى ، وانتخب عضواً فى المؤتمر السورى بعد الحرب الكبرى الأولى .

وقد عرف بالوطنية الصادقة التى لا تعرف المرونة ، وكان سيئ الظن فى نوايا الفرنسيين ، لا يرضى بسياسة التفاهم ولا يقبل الالتقاء بالاستعمار فى منتصف الطريق . وقد ظل حتى آخر أيامه على رأيه لا يريم عنه . فلا يقبل المعاهدات ، ويرى أن انتخابات المجالس النيابية زائفة ما لم تجل قوات المحتل عن البلاد .

ويرى أن اللغة العربية سوف يقضى عليها ما دامت برامج التعليم الرسمى تجعل اللغة الفرنسية مقياساً للنجاح فى المدارس وحمل حملات متعددة على وسائل الاستعمار فى الإفقار المالى والتجهيل بآداب العرب وتاريخهم المجيد الحافل بالانتصارات .

وكان هنانو مديد القامة . نحيف البنية خطيباً ساحر

العبارة ومحارباً ومقاتلا مقداماً لا يعرف الجزع إلى نفسه سبيلا .

وقد عاش مشاركاً فى حركات المقاومة حتى توفى فى ٢١ نوفمبر ١٩٣٥ .

٢١ نوفمبر ١٩٣٥

مصطفى الوكيل

« المجاهد الذى رفض بعثة الحكومة »

١٩١٣ — ١٩٤٥

« ما لنا ولألمانيا . إنما نحن مصريون
قبل كل شىء »

وليست هذه المعاهدة استقلالاً ولن تكون ، وليست هى ما مات من أجله الشهداء وأريقت فى سبيله الدماء . إن رحيل القوات إلى القنـــال ليس دفاعاً عن القنـــال أو مصر بل تهوينا لفكرة الاحتلال على المصريين وإبعاد فكرة الجلاء عن أذهانهم ؛ ولكن الإنجليز يخطئون أكبر الخطأ إذا ظنوا أننا نرضى بالجلاء بديلاً . سترون منا حرباً لم تحاربكم مصر مثلها من قبل، حرباً عنيفة لا هوادة فيها ولا لين حتى يتم الجلاء . ما هذه الفوضى التى تغمرنا فى مصر ، أقل من ربع مليون مصرى يملكون أكثر من نصف الأرض، ومئات قليلة من هؤلاء لديهم الآلاف المؤلفة التى لا تنتفع مصر منها بشىء ولا يتكسب منها الفقراء بمليم ، وإلى جوار ذلك كله يتشرد آلاف الأطفال ينامون فى ثياب مهلهلة على الأفاريز فى البرد والحر ،لا يجدون من الطعام إلا بقايا قذرة من صناديق القمامات .

* * *

ذلك هو « وهج » روح مصطفى الوكيل منبعثاً من خواطره وآرائه وأفكاره، فيه ذلك الإيمان الصادق بمصر ؛ فقد كان أول من هاجم معاهدة ١٩٣٦ وهو يزاول دراسته الجامعية فى بريطانيا، فأرسلت حكومة مصر فى ذلك العهد تقطعه عن البعثة الرسمية إلا إذا بعث يعتذر، فأرسل يقول كلمته الخالدة « لا اعتذار ».

ومضى يدرس مستقلاً حراً على حسابه ، وظل طوال إقامته فى لندن يلبس الطربوش ويرفض أن يخلعه من فوق رأسه اعتزازاً بوطنه وقوميته وعاش مصلياً صائماً فى رمضان .

ولما عرض عليه أستاذه أن تمنحه جامعة لندن « المجانية » أو تدفع عنه المصروفات بطريق أو بآخر ، رفض بإباء وشمم ، وهو الفقير ، وعز عليه أن تتخلى عنه بلاده ثم يقبل مساعدة بريطانيا التى هاجم معاهدتها .

واستطاع أن يختزل دراسته التى كانت تستغرق ثلاث سنوات فى عام ونصف، وحصل على أرقى الدرجات العلمية فى موضوع لم يسبق لعربى أو شرقى أن تخصص فيه وعمره لا يتجاوز الثالثة والعشرين، وقد شهد الدكتور شابمان أستاذ الرياضة الأكبر فى جامعة لندن والمشرف على رسالة مصطفى الوكيل بعبقرية هذا الشاب وقوة شخصيته فى تقرير له : قال :

« درس الدكتور مصطفى عبدالله الوكيل تحت رعايتى بالكلية طوال العامين (أكتوبر ٣٥ — أكتوبر ١٩٣٧) باعتباره طالباً يعد نفسه للحصول على درجة الدكتوراه فى الفلسفة الرياضية

البحتة، واختار موضوع رسالته " ذبذبة الأرض المغنطيسية " وتعالج الرسالة عن طريق الرياضة بعض معضلات النظريات الطبيعية التى اختيرت لتساعد على تفسير موضوع الرسالة . ويحتاج هذا اللون من الدراسة إلى نوعين من الكفاءات والمواهب؛ حضور البديهة ودقة الحكم واستعداد عقلى لإدراك الحقائق الطبيعية عن طريق الإلهام والسليقة ، وكفاءة رياضية فنية وقدرة على توضيح النتائج الرياضية العامة بما يتفق مع المعضلة الطبيعية التى نحن بصددها .

على أن هذه المواهب مهما عظم شأنها فلا تكفى وحدها للنجاح فى مثل هذا العمل الذى تصدى له الدكتور مصطفى مالم تكن مصحوبة بالجد والاجتهاد، والإقبال على الدرس فى شغف ولذة.

وهو ما كان يتصف به مصطفى أحسن اتصاف .

ولمعرفتى الوثيقة به وما أظهره من مواهب جعلتنى أوصى بأن يقوم بأى عمل جامعى أو فنى فى أى وظيفة من الوظائف التى يستطيع فيها عقل قادر ومنظم وخبير مشغوف بالجد والاجتهاد أن يكون نافعاً ومنتجاً .

وكان مصطفى ممتازاً ومهذباً وشريفاً، واتسم بعقليته المستقلة وروحه المرحة » .

وتلقى هذه الوثيقة الضوء على شخصية هذا الشاب الذى اختار — بعد أن أحرز أرقى الدرجات العلمية — طريق الجهاد فى سبيل وطنه والأمة العربية، فقدعاد مصطفى إلى وطنه حيث

بدأ كفاحه الوطني ؛ ولكن الحكومة الحزبية إذ ذاك لم تلبث أن حرضت عليه فشجت جبهته وكاد يذهب سمعه وحمل من المنصورة إلى سجن القاهرة .

ورفضت الحكومة المصرية — انتقاماً من رأيه فى المعاهدة — تعيينه فى أى وظيفة ، فاتجه إلى بناء المدارس الأولية والحرة يمحو بها أمية الصغار ، فلما احتاجت مدرسة المعلمين العليا ببغداد إلى أستاذ ليدرس الرياضة بمرتب ٤٥ جنيهاً ، قبل هذا العمل وكان مرتبه كله ما عدا القليل منه ينفقه فى العمل الوطنى ، فقد تبرع بنصف مرتبه لمساعدة الطلبة العراقيين على إتمام دروسهم ، ويرسل الباقى إلى مصر للعمل الوطنى ، ولم يلبث أن اشترك فى الجهاد الوطنى العراقى فطلبت بريطانيا إبعاده ، غير أن حكومة العراق استطاعت أن تحتفظ به .

وبقى مصطفى يدرس فى دار المعلمين العليا حتى نشبت ثورة العراق بقيادة رشيد الكيلانى وصلاح الصباغ وزملائهما . فلم يلبث مصطفى أن بادر إلى التطوع مع المجاهدين الفلسطينيين بقيادة الشهيد عبدالقادر الحسينى الذين كانوا يتدربون فى العراق وقتئذ

فلما فشلت الثورة تمكن من الفرار مع زملائه من المجاهدين إلى إيران فتركيا ومنها وصل إلى برلين .

* * *

وفى برلين ظل على إيمانه واستقلال شخصيته ؛ فهو يعارض السياسة البريطانية ، ولكنه لا يقبل أن يكون أداة فى يد السياسة

الألمانية ؛ ولذا فقد رفض أن ينطق بكلمة واحدة فى الراديو الألمانى بالرغم من إلحاحهم عليه ؛ وقد كان موقفه هذا موضع تقديرهم و إجلالهم .

وكان أعمق من هذا إيماناً بوطنه . إذا سمع أحداً يتألم لهزائم ألمانيا يقول : ما لنا ولألمانيا ؛ إنما نحن مصريون قبل كل شيء ، ولا يعنينا ربحت ألمانيا الحرب أو خسرتها وإنما الذى يعنينا هو حرية مصر ومجد مصر .

ولم يكن يبالى أن يصل هذا إلى أسماع الألمان ، فذلك كان شأنه دائماً .

وشاء القدر أن ينقصف هذا الغصن الرطيب الذى كان مرجى لخدمة بلاده . . فقد قتل فى غارات الحلفاء على برلين ؛ وقيل إنه لم يكن يلجأ إلى المخبأ عندما يسمع صفارات الإنذار . بل يلبث فى مكانه لا يتزحزح ولا يبالى ويقول : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . ووقعت على برلين غارة رهيبة ليلة ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤٣ اشترك فيها نحو ألف من القلاع الطائرة تحمل كل منها فوق ثلاثة أطنان من المتفجرات ؛ فلجأ جميع إخوانه إلى المخبأ ، أما هو فقد بادر بالخروج فى هذه الحالة والسماء ملأى بمئات الطائرات تلقى رجومها على كل مكان . خرج مسرعاً ليشترك فى إخماد النيران و إسعاف الجيران . الذين كانت بيوتهم تشتعل ، وفى اليوم التالى كانت الغارة تقذف قنابلها ، ومصطفى الوكيل جالس إلى الراديو يسمع أنباء مصر . . ولولا أن صديقاً

له حمله إلى المخبأ لانهار عليه البيت الذى سقطت عليه قنبلة ضخمة خرقت السقف وصدعت البناء .

ثم نقل المصريون إلى قرية تبعد سبعين ميلا من العاصمة وكان يتردد على برلين مرة فى الأسبوع للعمل على إخراج من فيها من العرب والمسلمين، وكان يحرص على أن ينتظر أكبر وقت ممكن فى برلين ويقول : إنها الفرصة فى مشاهدة المعارك التى تنشب فى برلين بين الألمان والروس لدراسة حرب الشوارع التى قد تحتاج إليها بلادنا .

وفى ليلة ٤ مارس ١٩٤٥ أغارت على برلين طائرة إنجليزية واحدة على غير العادة وألقت قنبلة واحدة أيضاً ، مصوبة خصيصاً على المعهد الإسلامى ، فسقطت على بعد نحو عشرة أمتار منه، وكانت قنبلة هواء مضغوط ؛ فدمرت البناء تدميراً شاملاً ،وكان مصطفى فى المعهد قال الشهادة وانطوت حياة فى عمر الزهر « ثلاثة وثلاثين عاماً » حفلت بالكفاح الضخم والإيمان الصادق والحب الجارف لمصر والعرب .

* * *

ولد مصطفى فى بنى سويف ١٩١٣ وكان أول فرقته فى كل مراحل التعليم ، كان ناسكاً زاهداً عابداً يرتل القرآن بصوته الجميل الذى كان يدفع الناس إلى الصلاة وراءه زاهداً فى الأطعمة الدسمة .

وكان عمر بن عبد العزيز مثله الأعلى . وعرف مصطفى

بالطابع الإنسانى ، وعرف بالسمو الذى لم يعرفه البشر . فلم تكن له أهواء أو هوايات . بل كان منزهاً عن التطلع إلى مظاهر الغرور أو المطامع أو نزعات الشر .

وصفه أحد كبار الألمان بقوله :

« إنه لا نظير له فى أخلاقه وعقله وفضله وروح التضحية فيه ، وما كنا نعتقد أن الشرق ينجب مثل هذا الشباب .

كان وفيًّا لكل مكان يحل فيه ، وقد رفض مصطفى أن يغادر برلين عندما اشتدت الغارات فيها ويقول : إننى شرقى عدو لتشرشل وهتلر على السواء ؛ ولكنى لن أغادر هذا البلد فى محنته . ولن أنسى أنه آوانى واحتمل موقفى السلبى معه .

وفى خلال إقامته فى برلين كان يستقبل العرب اللاجئين من كل مكان ويطعمهم ويحتمل متاعبهم ويحل مشاكلهم ويرعاهم بروح من الود الخالص والإخاء الصادق .

وكان مع ذلك كله كاتباً بليغ العبارة رصين الأداء ، وخطيباً ممتازاً يهز القلوب ويفتن الألباب .

وقد أداه زهده ونقاء نفسه أن يحب الخليفة الزاهد : عمر ابن عبد العزيز ، فيدرس حياته وينتهج نهجه ، ويقتفى أثره ، ويكتب عنه .

وفى العراق وفى ألمانيا وفى بريطانيا ، كان مصطفى يتأهب لعمل فى وطنه يدرس الأساليب والمعلومات والخطط لحرب بريطانيا فى أرض العرب ومقاومة احتلالها .

وقد ظل جسد مصطفى الوكيل فى برلين حتى كرمته الثورة وأعادته إلى الأرض التى أحبها ودفن فيها عام ١٩٥٢ ، ما أشبهه فى ذلك بقديس الوطنية « محمد فريد » .

توفى فى ٤ مارس ١٩٤٥

صلاح الدين الصباغ

« أوقد شرارة القومية العربية فى جيش العراق »

— ١٩٤٥

« إن الجيش العراقى لم يشكل ليكون مطية لبريطانيا وإنما ليكون سباقاً إلى تحرير العرب ورفع نير الاستعمار »

قدم الوطن العربى عدداً من الشهداء الأبطال القادة فى معاركه مع الاستعمار . . ففى الثورات التى قامت فى مصر وسورية وفلسطين والعراق وتونس وليبيا ومراكش والجزائر ، سقط شهداء من هؤلاء الأبطال مضرجين بالدماء ، غير أن صلاح الدين الصباغ يختلف عن هؤلاء فى أنه لم يكن شهيد الثورة العراقية وحدها ، وإنما كان شهيد القومية العربية ، فقد آمن بالعمل للوطن الكبير . وحمل دائماً لواء الدعوة إلى الوحدة الكبرى ؛ ولذلك تعقبه الاستعمار البريطانى فى خلال هجراته المتعددة من وجه الظلم حتى استطاع عن طريق الدس أن يقبض عليه ويعلقه على «أرجوحة الأبطال» أمام وزارة الدفاع فى بغداد ليكون على حد تعبير الشاعر « علو فى الحياة وفى الممات » .

عندما نشأ صلاح الدين الصباغ العربى الأب والأم ،

ابن صيدا، المولود عام ١٨٩٩ فى الموصل ، تفتحت نفسه على كلمة « العرب » فعاشت معه ناراً ونوراً . لقد تلقى صلاح الدين أول دروس القومية من مدرسة السلطانى ببيروت على « عادل العظمة » الذى كان يحول دروسه كلها إلى حديث عن العروبة وأمجادها . كانت البلاد العربية جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وقد أعلنت الحرب العالمية ودخلت تركيا الحرب واضطر إلى أن يتجه إلى معهد التعليم العسكرى فى إستانبول حيث تخرج سريعاً (ديسمبر ١٩١٥) برتبة ضابط . وأرسل فوراً إلى جبهة « جناق قلعة » فى حرب الدردنيل .

وفى نفس هذه اللحظات وفى نفس الوقت كان العرب ينشقون عن تركيا العثمانية ويحاربونها لإعادة مجد الدولة العربية .

ولم تلبث المعارك أن دفعت صلاح الدين إلى سيناء لمواجهة القوات الإنجليزية الزاحفة نحو الشمال (مايو ١٩١٧) وهكذا اتجه مرة أخرى إلى أرض العرب ومر بدمشق وحلب وحماه وهناك تجددت روحه . وجرى الحديث حول محاكمة الشهداء العرب الذين علقهم جمال باشا السفاح فى ساحتى دمشق وبيروت .

وفى معاركه مع الإنجليز الزاحفين شمالاً أبلى بلاء حسناً .

وقد انتهت هذه المعارك بتراجع القوات العثمانية أمام المقاومة التى كانت عربية اسمياً ولكنها لم تكن فى الواقع إلا غزواً استعمارياً جديداً للعالم العربى ، ونقله من سلطة الدولة العثمانية

إلى « حماية » بريطانيا و « انتداب » فرنسا .

وانتهت الحرب العالمية ، وسُرح «صلاح» فسافر إلى الموصل فى ديسمبر سنة ١٩١٨ ومنذ ذلك اليوم دخل معركة القومية . فإنه سرعان ما التحق بالجيش السورى الذى كان جيش الدولة العربية الأولى برياسة فيصل ، وهناك تعرف بفهمى سعيد زميله فى ثورة ١٩٤١ .

وشهد صلاح الصباغ معركة ميسلون وخاتمة الدولة العربية الأولى واحتلال فرنسا لدمشق واشترك فيها . يقول فى مذكراته : جمعنا ما تبقى من رجال وخيل وأمرنا بأن نعسكر فى تكية السلطان سليم ، وكان فوزى القاوقجى معنا ، وأمرت مع زميلى بحراسة قصر فيصل ؛ فلما ترك فيصل قصره ورحل إلى درعا بحوران سحبت الرعيل على أن أعود إلى الجامع وفى الطريق التقيت بفهمى وكانت عيناه تفيضان بالدموع .

فسألته — خير إن شاء الله . أين أنت ذاهب برعيلك يا فهمى ؟ قال اسمع ياصلاح ، غداً يدخل الفرنسيون دمشق فى الصباح الباكر ، علمت بذلك من نورى السعيد ، وسوف تلقاه حتماً لأنى تركته على جسر المرجه ؛ لقد طلب منى هذا الرجل أن أحافظ على الأمن داخل البلد إلى أن تدخل الجيوش الفرنسية صباح الغد فتحتل دمشق ؛ ولكن خاب ظنه فأنا ذاهب برعيلى للالتحاق بقوات حمص وحلب فوراً ، وسنمضى فى قتال الفرنسيين . . وتركنى فهمى ورعيله . وبعد شهر واحد كنت

أنا وفهمى أسيرين فى قلعة واحدة بجزيرة أروادى، وكانت هذه هى بدء الانتفاضة العربية فى نفس« صلاح الصباغ » وقد انتهى الاعتقال بتسليمه وزميله إلى الإنجليز حيث نقلا إلى العراق.

وهناك تشكل الجيش العراقى عام ١٩٢١ والتحقا به .

وكان صلاح هو أول معلم للفروسية فى تاريخ الجيش العراقى .

وتألق اسمه فى الجيش وبدأ يأخذ مكانه الطبيعى ، حيث مضى يبث روح القومية العربية فى الجيش العراقى الناشئ وكان فى هذا الإيمان خصماً طبيعياً للإنجليز الذين يحتلون العراق، ويفرضون عليه نظام التجزئة والانفصالية عن الأمة العربية والقضاء على فكرة الوحدة العربية .

يقول : « كان اختلاطى بالإنجليز يدمى قلبى ويجرح مشاعرى ، ويثير فى نفسى ردود فعل قوية ؛ غير أنى كتمت ذلك عنهم سنين عديدة ، فأعجبهم منى السعى والاجتهاد والانصراف عن العمل القومى والوطنى ؛ فقد كنت أطوى الليل والنهار منكباً على أداء واجبى ، وفاتهم أنى كنت أبشر بمبادئنا سراً وأنشرها بين أصحابى وتلاميذى ؛ تلك المبادئ التى يرتجف الاستعمار خوفاً منها وغاب عنهم أنى كنت أسعى بكل قوتى لأكون أهلا لتسلم دفة القيادة ؛ فأكون على رأس جيش عربى لا شائبة فى ظاهره وجوهره . مترقباً الفرص لإنقاذ العروبة من ذل الاستعمار وجوره ، ومن أساليبه السامة . ومخدراته المعسولة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنه كتب إلى طه

الهاشمى قائد عام الجيش يقول : إن الجيش العراقى لم يتشكل ليكون مطية لبريطانيا التى قتلت أحرارنا ومزقت بلادنا العربية. وإنما ليكون سباقاً إلى تحرير العرب ورفع نير الاستعمار عن كاهلهم.. لا . . . وإلى الأبد . لن يكون بجانب بريطانيا جندى من العرب الأباة؛ لأن بريطانيا هادمة صرح العروبة والإسلام .

وهكذا بدأ يعمل فى الجيش العراقى على قاعدة « القومية العربية » مع المربع الذهبى فهمى سعيد — ومحمود سلمان — وكامل شبيب .

وكان نورى السعيد يبث جواسيسه حول صلاح الدين ليحاول كشف خططه وهو يجهر بالعروبة والوحدة فى نفس الوقت الذى كان نورى السعيد يسير فى خطة خفية للقضاء عليها والعمل فى نطاق الإقليمية الضيقة .

كان صلاح الدين يؤمن بتسليح الجيش العراقى ليكون جيش الأمة العربية كلها، وقد نجحت خطته هذه فى الاتصال بالإنجليز من ١٩٢١ إلى ١٩٤١ .

يقول : واستطعت بفضلها أن أساعد العرب وأن أغذى ثوراتهم فى سورية وفلسطين من وراء الستار، ثم كان نورى السعيد أول من لفت نظر الإنجليز إلى ميولى الحقيقية وميول زملائى، فقد كان عهدى بالجنرال (ونز هاوز) صديقاً يغرقنى بالمدح والثناء، وكان يظن أنى من المعتدلين الذين يماشون سياسة بريطانيا الاستعمارية وينخدعون بأساليبها المعسولة . ولعله كان

يظن أنى من دعاة إيجاد أمة عربية تخضع لسياسة بريطانية . فتشبع بهذا الطريق بطونهم وترضى شهواتهم . . . وقد رأيت الجنرال المذكور يتقلب بين عشية وضحاها عدواً لدوداً يقدم لرياسة أركان الجيش تقريراً يكيل الطعن لى ، ولو علم الجنرال ونز هاوز أو السير نورى السعيد أو الوصى عبد الإله بأمر علاقتنا — أنا وإخوانى — بالأحرار العرب فى فلسطين عام ١٩٣٥ أو قبل ذلك لكان السجن والطرد مصيرنا .

وهكذا تبدو صورة صلاح الدين الصباغ قبل ثورة ١٩٤١ التى قادها المربع الذهبى بالاشتراك مع رشيد الكيلانى ، والتى تعد فى نظرهم امتداداً لثورة ١٩٢٠ التى هز بها العراق جبروت بريطانيا وكبدها خسائر فادحة .

كان على رأس التشكيل العربى الذى تعمقت جذوره فى جيش العراق بالرغم من تبعية نورى السعيد وعبد الإله للإنجليز . وقد كان بذلك له دوره فى معركة فلسطين يقول : لقد كان تسعون فى المائة من القابضين على زمام الجيش من غير العرب حتى أواخر سنة ١٩٣٧ وإن هذه النسبة الساحقة المجحفة كانت فى ازدياد مطرد حتى قيض الله لى ولإخوانى أن نقبض على زمام الجيش فعارضت رغبات الإنجليز وأذنابهم الطغاة عند ما حددت النسبة ، وازدهرت العروبة فى مرافق الجيش . وارتاح لهذه البادرة شباب العرب فى فلسطين وسوريا واليمن والسعودية . وكان صلاح الدين يقول لطلبته وهو يدربهم : « هذا تراب

بلادكم ، يجب أن تتعودوا على محبته والتضحية من أجله بأنفسكم وأرواحكم » .

وكان معنى هذا أن تيار القومية العربية قد أخذ يسرى سرياناً قوياً فى الجيش العراقى ويمهد لعمل كبير لمقاومة بريطانيا. وكان الصباغ يعرف الأخطار التى تحيط بالعمل للقومية العربية ، ويقول : « إن العالم كله يقاوم الوحدة العربية ويمنعها ويقيم العراقيل أمام تحقيقها . . إن الوحدة العربية إذا تحققت ستقلب المخططات والسياسات العالمية رأساً على عقب » .

ولكنه مضى فأكد عروبة العراق . وقاوم تيار عراقية العراق وفصله عن الأمة العربية . ووضع الميثاق القومى العربى ، واشترك فى المعارك العربية فى أجزاء الوطن العربى خارج العراق . وكان له دوره فى معركة ميسلون (سوريا) ومعركة فلسطين ومحاربة الصهيونية ، وتدريب المجاهدين العرب فى فلسطين ومدهم بالسلاح والذخيرة والمال .

وكان إلى ذلك قد خاض الحرب العالمية الأولى مع دولة الخلافة العثمانية ولكنه كان فى خلال ذلك كله عربياً خالص العروبة لا يقبل كلمة واحدة يشتم منها أى تهجم على العرب حتى إنه عند ما سمع القائد التركى يتحدث عن العرب قال له :

سيدى القائد : دونكم إياى فاعدمونى فوراً بلا رحمة ولا شفقة . . أنا عربى أنا عربى . فافعلوا ما تريدون ، ماذا أساء العرب اليكم لكى يهانوا ويشتموا ؟

لقد كان يؤمن وهو يعمل فى صف تركيا أنه إنما يحارب الإنجليز الذين كان يكرههم طوال حياته « لقد بقيت أحارب الإنجليز حتى كانت الهدنة ، ونقمتى تشتد على كل طامع باستعمار العرب . . لقد كنت أومن بأن العرب أئمة الهدى . ونبراس احترق ولا يزال يحترق ليضىء لغيره » .

ويقول موقناً بتراثنا وأمجادنا : « مبادئنا من تراث الأنبياء ومن وحى الإله لإسعاد كل حى على وجه الأرض وهى تكفينا عن تيارات الأخلاق المادية — الغربية التى تعمل فى القضاء على المثل العليا القومية التى كان أسلافنا مبدعيها وحاملى مشاعلها .. فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، تحتفظوا تراثكم وترثوا أرضهم » .

وهو يرى إنجلترا عدو العرب الأول : ليس من ذئب أفتك بالعرب ولا عدو ألد للإسلام من بريطانيا . لن تقوم للعرب قائمة إلا بزوال الإمبراطورية البريطانية التى تعمل على تجزئة البلاد العربية وجعل أكثر سكانها أقلية ؛ فتبعث أقواماً اندرست وأمماً عفا عليها التاريخ وهى إذ تؤازر اليهودية لا تفعل ذلك حباً لليهودية بل تثبيتاً لمصالحها الاستعمارية .

أنا أمقت بريطانيا وكل سائر على نهجها ليستعمر قومى »

ثم صور كيف يتهمه نورى السعيد بأنه غير عراقى . ويقول عنه إنه دخيل لأن أباه سورى : « إن غير العربى فى العراق أصيل » . [يعنى أن السورى دخيل] .

ويصور مدى إيمانه بالحرية والعروبة وكراهية الاستعمار والتبعية.

« والله إنى لأفضل أن أكون حمالاً (عتالا) أحمل على ظهرى متاع الناس لكى أحصل على رزقى بدلاً من أن أكون قائداً أو وزيراً أخضع للاستعمار » .

* * *

وهكذا كاد هذا التيار العربى العميق يؤتى نتائجه الضخمة للقومية العربية لو لم تقم الحرب العالمية عام ١٩٣٩ ، فإن المعركة قد بدأت بين هذه القوة وبين الاستعمار عند ما أحست بريطانيا مدى الخطر الذى سيطيح بها . عند ما انتفضت العراق فى ثورة ١٩٤١ — وأعلنت الحيدة بين المعسكرات المتحاربة .

وتجمعت المؤامرات من كل ناحية لتقضى على ثورة صلاح الصباغ ورشيد الكيلانى ؛ فلما قضى عليها بالتآمر والخيانة — كما حدث بالنسبة للثورة العرابية عام ١٨٨٢ فى مصر وثورة فلسطين عام ١٩٣٦ — شأنهم دائماً — أعلن كبير لهم ما معناه : أن الثورة العراقية كان يمكن أن تقلب ميزان القوى وتغير نتائج الحرب العالمية الثانية تغييراً عكسياً .

وكان حقاً على الاستعمار البريطانى أن يحكم بالإعدام على هذا البطل ، وأن يرفع جثمانه الطاهر فوق وزارة الدفاع فى بغداد وذلك فى محاولة يائسة للقضاء على تيار القومية العربية فى العراق وتأكيداً لمعنى التجزئة والانعزالية والتبعية لبريطانيا .

يقول صلاح الدين : « لقد سلمنى الأتراك ، فنقضوا

عهود الشرف والقوانين المرعية فى بلادهم . سلمونى إلى الإنجليز على الحدود السورية بمعونة الدرك السورى .
إن رجال سوريا والعروبة يشهدون بأنى لو كنت ذا (نزعة عراقية إقليمية) لأصبحت الآن أعلى من نورى السعيد ومن عبد الإله مقاماً عند الإنجليز وإن تضحيتى فى سبيل فلسطين وسوريا هى التى أوصلتنى إلى هذا المآل » .

رحم الله صلاح الصباغ ؛ فقد كان رائداً من رواد القومية العربية . . وإن الشعلة التى أوقدها لم تنطفىء . . ولن تنطفىء . . .

استشهد عام ١٩٤٥

عبد الرحمن فهمى
« عملاق ثورة ١٩١٩ »
— ١٩٤٦

« عند ما سمع حكم الإعدام عليه قال :
ما يهم : لقد أدينا واجبنا »

كانت ثورة ١٩١٩ مفاجأة مذهلة لبريطانيا وللعالم الغربى كله ؛ فقد انفجرت بصورة قوية موحدة فى جميع أنحاء مصر. دون أن يكون لها قائد واضح وإنما كانت « عملية مخاض » بعد فترة حضانة طويلة لمبادئ مصطفى كامل ومحمد فريد .

ولم تكن ثورة ١٩١٩ هى تلك الأحداث التى وقعت بين (٩ مارس ١٩١٩) وهو أول أيام الثورة إلى(١١ أبريل ١٩١٩) وهو يوم السماح للوفد الرسمى بالسفر من المنفى إلى باريس للمفاوضة ؛ فإن ذلك هو الجانب المكشوف منها . ولكن الثورة كانت تعمل أعمالها الخفية فيما بعد ذلك وإلى مدى طويل : هو العمل الذى أزعج البريطانيين وآزر الوفد الذى لقى فى فرنسا تجاهلاً متعمداً وإنكاراً واضحاً . لولا الأحداث التى كانت تقوم بها القوة الخفية التى كان يديرها « عبد الرحمن فهمى » .

وهذه تمثل المرحلة الدقيقة بعد أن تخلصت الثورة من المظاهر الجماعية الضخمة التى كانت تمكن لجنود بريطانيا

من إطلاق الرصاص عليها . وقد امتدت هذه المرحلة الجديدة إلى أبريل ١٩٢١ خلال عامين كاملين بقيادة رجل لم يعرف قدره على صورة صحيحة، ذلك هو عبد الرحمن فهمى عملاق ثورة ١٩١٩ .

كانت داره فى قصر العينى من المراكز السرية للثورة المصرية ،وكان ماله هو وقود هذه الحركة التى تحولت إلى عمليات اغتيال ضخمة للبريطانيين ولصنائعهم من المصريين ، وكان أثر هذا الدور أخطر كثيراً . وأبعد مدى من الثورة التى استمرت شهراً كاملا بصورة جماعية .

لقد انبثقت شرارة الثورة فأسفرت الطبيعة المصرية الحرة عن أمجد خفاياها ؛ وكان من هذه الأمجاد عبد الرحمن فهمى وإخوانه لطفى المسلمى وحامد المليجى ومحمود عبد السلام وتوفيق صليب وحلمى الجيار وحسنى الشنتناوى وغيرهم .

وكان فى عمله هذا إنما يحمى المفاوضين ، ويحول بين المستوزرين وبين كراسى الحكم فى مصر حتى لا تجد بريطانيا من يقبل ما تحاول أن تفرضه .

ويرجع اهتمام عبد الرحمن بالحركة السياسية إلى عام ١٩١٨ عند تأليف الوفد المصرى ؛ فاشترك فى الحركة ، وكان آخر أعماله تولية منصب وزارة الأوقاف ، فعمل سكرتيراً للجنة الوفد المركزية مع أمين الرافعى .

وقد سرب إلى الوفد فى باريس مستندات الفظائع والقلاقل

التى ارتكبت فى البلاد مؤيداً ذلك بكثير من صور المحاضر الرسمية والصور الفوتوغرافية .

واستطاع بلباقته ويقظته أن يتغلب على كثير من العقبات ومن ذلك أن سعد زغلول وأصحابه عند ما سمح لهم بالسفر من مالطة إلى باريس ، كان الظن أنهم سيلقون بها من يسمح لهم بالحديث عن حق مصر فى الاستقلال أمام مؤتمر الصلح ؛ غير أنهم لم يلبثوا أن وجدوا معارضة تامة فى تمكينهم من هذا الحــق .

هنالك ضاق سعد زغلول بالأمر وأرسل إلى لجنة الوفد المركزية برقية يقول فيها « منذ وقت وصولنا وجدنا جميع الأبواب مغلقة دوننا ، وكل مجهوداتنا ومساعينا تبذل بلا فائدة ، وقد وضع نص من الشروط الخاصة بألمانيا بموافقة الدول على الحماية الإنجليزية على مصر .

يقول عبد الرحمن فهمى : ناولنى إبراهيم الهلباوى هذه البرقية وهو مضطرب فلما قرأتها قلت له :

« علينا أن نتجاهل هذه البرقية ولا نذيعها حتى لا تحدث صدمة ، وكان فى الكشف عن هذه البرقية القضاء على حركة مؤازرة الوفد فى باريس » .

ثم لم يلبث سعد أن أرسل إليه — نتيجة للإعراض الذى لقيه الوفد وسد الأبواب فى وجهه — يطلب منه أن يؤلف لجنة برئاسة أحد كبار المصريين الذين « تحترمهم » بريطانيا لمحادثة

«ملنر» فى مطالب البلاد وارتأى عبد الرحمن فهمى أن يختار عدلى يكن ورفض عدلى .

ثم رأى عبد الرحمن فهمى أن ينظم مقاطعة للجنة ملنر فى مصر تكون رداً على موقف إنجلترا من مقاطعة الوفد المصرى فى باريس .

لذلك بث عبد الرحمن العيون والأرصاد حول أعضاء لجنة ملنر فقد نزلت من القطار فى شبرا حتى فندق سمير اميس وخلال إقامتها ، فكان يعرف كل من استدعتهم اللجنة وتحدثت معهم . ثم لا يلبث بعد ذلك أن يستدعيهم بعد مقابلتهم لملنر ويحصل منهم على أحاديث تنشر فى الصحف . وكانت هذه الأحاديث تبرز بصورة خاصة القول بأنهم طالبوا بالاستقلال وعند ما زار ملنر الأقاليم كان مشرفاً على أساليب المقاطعة بها .

وكان هذا العمل من عبد الرحمن فهمى مغيظاً محنقاً لبريطانيا التى أزعجها أن يلقى ملنر مثل هذه المقاطعة بحيث لا يجرؤ أحد أن يتحدث معه . وأن تكون عبارة الرد على أسئلته « لديكم الوفد المصرى فى باريس . . اسألوه » .

ومن أجل ذلك وضعه اللورد اللنبى المندوب البريطانى فى مصر تحت المراقبة الشديدة، غير أنه استمر فى العمل ولم يعبأ بما يدبر له . ومضى على رأس حركة يعمل ، يوزعون المنشورات ويعترضون ركب قادة الجيش البريطانى والمستوزرين من أعوانهم المصريين بالقنابل ، وكان نجاحهم فى مقاومة حركة ملنر فى

مختلف أنحاء مصر نصراً كبيراً .

فإن حرب المنشورات أفسدت خطة ملنر إفساداً كاملا . ومضت الجماعة تعمل من أجل إفساد كل اتجاهات بريطانيا فى مصر . وكانت هذه الجماعة تهتدى بخطط جمعية « السينفين» الإيرلندية . وكانت كلمة عبد الرحمن فهمى هى :

تطهير البلاد من الخونة

وقد كان من عمل عبد الرحمن فهمى وزملائه الاعتداء على الوزراء الخونة الذين تعاونوا مع بريطانيا أمثال : يوسف وهبه ومحمد شفيق و إسماعيل سرى – وقد وقعت هذه الأحداث فى الفترة من ديسمبر ١٩١٩ إلى مايو ١٩٢٠ ثم قامت بالاعتداء على توفيق نسيم فى يونية ١٩٢٠ كما دبرت مؤامرات الاعتداء على اللورد اللنبى وفلنتين لمشيرو والكولونيل سيمز من كبار البريطانيين وقد قسموا العمل بينهم وفق نظام شامل : قسم للمنشورات وقسم لتوزيع الأسلحة وقسم لإلقاء القنابل .

واضطرت بريطانيا إلى القبض على عبد الرحمن فهمى فى أول يوليو ١٩٢٠ و إيداعه ثكنات قصر النيل . ووجهت إليه تهمة قلب نظام الحكم فى البلاد ، ومحاولة قتل السلطان والوزراء والاشتراك فى جمعية ثورية تعمل فى الاغتيال والقتل الفردى وتوزيع الذخائر والأسلحة .

وأشرك مع ٢٨ من أعوانه . فيهم حسنى الشنتناوى وحامد المليجى وعبد الرحمن الجديلى .

وبدأ المجلس العسكرى فى محاكمته فى ٢٠ يوليو ١٩٢٠ وتقدم عدد كبير من المحامين الوطنيين ومحاميين من الإنجليز للدفاع عنه وتألفت المحكمة من خمس ضباط واعتمدت على تقرير من خائن يدعى « عبد الظاهر السمالوطى » واتهم بأنه يقود جمعيات اليد السوداء والدفاع الوطنى واللجنة المستعجلة والشعلة وجمعية الخمس آلاف ومجلس العشرة والمدفع وأن المحرك الرئيسى لها جميعاً هوَ عبد الرحمن فهمى الذى قال للأعضاء (افعلوا ما شئتم) .

وبدأت المحاكمات فى نفس الوقت الذى عرض فيه مشروع ملنر –الذى قبله سعد زغلول– على الأمة. وقد قصدت بريطانيا أن تقضى على العناصر الوطنية فى هذا الوقت لتفسح المجال أمام مشروعها مستهدفة من الاتهامات وجو المحاكمة الرهيب التأثير فى سير المفاوضات حتى يقبل الشعب المشروع عن طريق الضغط والإكراه . وامتدت المحاكمة أربعة شهور كاملة .

ويرى الأستاذ عبد الرحمن فهمى أن هذه المحاكمة وما أحاط بها من ظروف الرهبة والقلق على مصير المتهمين من العوامل التى مالت بالكثيرين إلى قبول المشروع فى مجموعه .

وانتهت المحاكمة يوم ١٥ أكتوبر ١٩٢٠ بالحكم على عبد الرحمن فهمى بالإعدام ثم عدل الحكم فى (٢٤ نوفمبر

١٩٢١) بالأشغال الشاقة خمسة عشر عاماً .

وقد ظل عبد الرحمن فهمى فى السجن ثلاثة أعوام حتى أفرج عنه عام ١٩٢٤ .

والمعروف أن بريطانيا أرادت باعتقال عبد الرحمن فهمى وأعوانه إيقاف الكفاح ضدها وخاصة فى فترة عرض مشروع ملنر . ولكن الخلايا التى كونها ظلت تعمل بعد اعتقاله واعتقال المعروفين من زملائه مما أزعج بريطانيا أشد الإزعاج .

وقد كان البريطانيون يرهبون عبد الرحمن فهمى قبل اعتقاله ويزعجهم إيمانه بوطنه الذى لم يجدوا سبيلا للنيل منه . بالإغراء أو التهديد . وكذلك مكانه بين زملائه وأعوانه . حيث كان موضع التقدير لرجولته وبطولته وفدائه . وقد اتصلوا به قبل القبض عليه محاولين الوقوف فى وجهه ، فاستدعاه اللورد اللنبى وأبلغه بأنه مسئول عما ينشر فى الصحف من منشورات تثير الخواطر وحمّله تبعة ما يحدث من اغتيالات وانفجارات فلما أراد أن يغادر القاهرة لم يؤذن له . وأبقى تحت المراقبة الشديدة ولكن ذلك لم يغير من إصراره أو يقلل من نشاطه .

وكان أن قدم للمحاكمة التى ظل خلال جلساتها الطويلة المتوالية غاية فى ثبات الجأش رافع الرأس مشرق الوجه . فلما أعلن الحكم عليه بالإعدام تلقاه بالابتسام واستهان به وقال : إن ذلك لا يهم ما دام أدى واجبه لمصر .

غير أن العجيب فى الأمر أن اسم عبد الرحمن فهمى قد

اختفى تماماً بعد خروجه من السجن فقد آثر سعد زغلول إرضاء للإنجليز أن يحجب هذا المجاهد عن مكانه الحق وربما كان يخشاه لقوته وفضله وسابقته .

وقد جاء فى مذكراته [١] أنه اتخذ بعد خروجه من السجن السعى فى إرشاد رجال الحركة الوطنية إلى الوحدة والاتحاد . كان يدعو للرجوع إلى الاتحاد الذى كان أبلغ مظاهر ثورة ١٩١٩ .

وأشار إلى موقف (ماكدونالد) من سعد فى المفاوضات ورأى أن الوسيلة للتفاهم مع الإنجليز تحتاج إلى نسيان الماضى بما فيه من تهم وقذف وشتائم . مما كان سبباً فى وقوع النفور بين سعد وكثير من إخوانه من مؤسسى الوفد .

غير أن عبد الرحمن فهمى لم يلبث أن اعتقل فى نفس العام الذى أُفرج عنه فيه عام ١٩٢٤ ؛ وذلك بعد وقوع حادث السردار . وكان نائباً عن دائرة عابدين فى مجلس النواب .

ويروى الفارق بين اعتقاله فى المرة الأولى والثانية ففى المرة الأولى فى ظل الاحتلال البريطانى كانت معاملته غاية فى الاحترام والتقدير ؛ أما فى المرة الثانية وفى ظل الاستقلال فقد ذهبت قوة مسلحة إلى منزله فاقتحمت المنزل دون استئذان ودخل الضابط البريطانى مصوباً مسدسه باحثاً عنه ، وقد بلغ الأمر أنه دخل

---

(١) « مجلة الدنيا المصورة » ٢٥ مارس ١٩٣١ .

عليه الحمام بالمسدس ، وفى المرة الأولى نقل معززاً إلى معتقل قصر النيل، أما فى هذه المرة فقد نقل إلى سجن العساكر الإنجليزية فى غرفة تحت الأرض مطلية بالقطران .

فلما خرج من الاعتقال فى أوائل ١٩٢٥ كانت فى نفسه مرارة السخط على الانشقاق قال: بعد حادثة السردار المعروفة هالنى أن وحدة مصر قد تفككت والأحزاب قد تعددت وتحولت الحركة السياسية عن وجهتها الطبيعية .

وقال إنه وجد أن اشتغاله بالحركة الوطنية متعذر وغير مثمر .

وكان قد تولى حركة العمال التى ازدهرت على يديه ؛ ورأى سعد أن يقصيه عن الميدان فمنع ترشيحه فى انتخابات ١٩٢٦ .

وبذلك انتهى ما بينهما .

ومضى عبد الرحمن فهمى يدعو إلى تصحيح المفاهيم الاجتماعية والفكرية ويقول إن أقصر طريق لاستقلال البلاد هو تربية الأخلاق قبل كل شىء، وأحسن الأخلاق : حب الوطن وحب التضحية والإخلاص .. غير أن عبد الرحمن فهمى لم يلبث أن هب فى نوفمبر ١٩٣٥ على أثر تصريحات (صموئيل هور) ضد حرية مصر التى وصفها بأنها كانت بمثابة الضربة التى وجهها الأعداء إلى صدر مصر المسالمة .

قال : لم أر بداً أمام تفرق كلمة الأمة من جهة وظلم شديد واستبداد مريع من جهة أخرى من العمل من أجل مصر ، وآمنت بأن طريق الخلاص هو طريق الوحدة وضم الصفوف

والتلاقى .

وقد تحقق — نتيجة لمساعيه ومساعى دعاة الوحدة — قيام الائتلاف الثانى بين الأحزاب ، وكان عبد الرحمن فهمى قد التحق فى صدر شبابه بالمدرسة الحربية وتقلب فى الوظائف الإدارية حتى بلغ منصب مدير الجيزة فوكيل لوزارة الأوقاف .

توفى عام ١٩٤٦

عبد القادر الحسينى

« أول شهداء معركة فلسطين »

— ١٩٤٨

أبى : أختم حياتك بقيادة أمتك فى ثورة
ضد الظلم

تعطى مصالع حياته صورة نهايتها ، الشاب المؤمن القوى الذى يريد أن يهب حياته لوطنه مصراً على الشهادة متطلعاً إلى الجهاد كسبيل لا سبيل غيره لتحقيق آمال الأمة العربية .

قيل له ما تتمنى ؟ قال : أرجو أن أفوز بنعمة الشهادة . وقيل له ماذا تفعل بعد أن تتحرر فلسطين؟ قال : أذهب إلى أفريقيا لأحارب الاستعمار الفرنسى فى الجزائر .

واليوم والجزائر تتحرر وفلسطين تتطلع إلى الحرية ، نذكر عبد القادر الحسينى ، إنه شبيه بمحمد عبيد فى معركة التل الكبير ويوسف العظمة فى معركة ميسلون كذلك ، كان عبد القادر الحسينى فى معركة القسطل .

لقد أراد ألا يرى فلسطين وقد احتلها اليهود .

كان أبوه « موسى كاظم الحسينى » أول من حمل لواء المعركة فى وجه اليهود والإنجليز معاً فى فلسطين ، وشب عبدالقادر

فى هذه البيئة المليئة بالأحاسيس الرهيبة . إن وطنه يراد به أن يغتال .

كان فى سن العاشرة عندما صدر وعد بلفور ؛ لذلك فقد عاش مطالع صباه فى ظل الأحداث ورأى جموع اليهود من مختلف أنحاء العالم وهى ترد إلى فلسطين فى ظل حماية بريطانيا التى تعين هؤلاء الدخلاء على التجمع والتسلط وامتلاك أراضى العرب .

ورأى كيف كان سلطان الاحتلال يسحق العرب سحقاً . فيحرق قراهم ويدمر بيوتهم .

وأرسله أبوه إلى القاهرة يتعلم فى أحد المعاهد الأجنبية . وجاء اليوم الذى يحتفل فيه بتسليمه الشهادة . فهل مضى فى الطريق الذى مضى فيه غيره .

لقد صعد المنبر وهو يحمل شهادة فى يده ليلقى كلمة يتهم فيها هذه الجامعة بالنزعة الاستعمارية والدعوة إلى التبشير .

وكتبت جريدة البلاغ فى يوم ٢٧ مايو ١٩٣٢ : إن عبد القادر الحسينى وقف على ملأ من الوف المدعوين والعلماء والوجهاء فقال : إن هذه الجامعة تظهر أمام الناس فى مظهر المدرسة العلمية ، ولكنها فى الحقيقة تعمل لإفساد العقائد ، ونصح الحاضرين بأن لا يدفعوا أولادهم إلى هذه المدرسة ؛ وكانت ضجة عنيفة ، واضطرب نظام الحفل ، وأرصدت الجامعة أحد موظفيها على الباب لينتزع الشهادة منه ويعتدى عليه ؛ وكانت

حكومة مصر قبل الثورة فى تبعيتها للاستعمار عوناً على إقصاء عبد القادر الحسينى من القاهرة إرضاء لذلك النفوذ .

هذه صورة عبد القادر الحسينى فى مطلع شبابه ، الرجل القوى الحر الذى لا يقبل المهانة لأمته فى كرامتها وعزتها ، والذى كشف مخازى المعاهد الأجنبية ورفض أن يقبل التدليس على ضميره اليقظ .

وفى عام ١٩٣٣ بدأ معركة جديدة فى القدس على نفس الطريق ، طريق الوطنية الصادقة ، فقد حدث أن قرر شباب فلسطين القيام بمظاهرات فى القدس ضد هجرة اليهود والانتداب البريطانى وحمل المتظاهرون قرارهم إلى « موسى كاظم الحسينى » والده . . وكان حاضراً معهم . فلما وجد والده متردداً بين الرفض والقبول لم يلبث أن قال له :

« اختم حياتك يا أبى بقيادة أمتك فى ثورة ضد الظلم » .

فلما أرسل المندوب البريطانى وفداً إلى والده للعدول عن القرار انبرى لهم : «إنكم تريدون أن تكفوا « أبى » عن دعوته . إنه لن يكون خائناً لوطنه ، والله لو أن والدى قبل وساطتكم فإنى سأكون أول من يخرج عليه ، إنى أحب أمتى أكبر من حبى لأبى . »

وهنا أطرق والده وقال : هذا ما تقوله يا بنى فماذا يقول الناس .

ومضى أبوه يحمل اللواء ويقود المعركة حتى سقط فى الميدان وهو يحارب ، هنالك حمل عبد القادر اللواء واندفع يحارب .

وخرج عبد القادر الحسينى فى ثورة فلسطين الكبرى عام ١٩٣٦ إلى الجبال بسيفه وبندقيته والتحق بالثائرين فى منطقة القدس، وخاض للمرة الأولى غمار المعارك مع قائد المنطقة « محمد سعيد العاصى » .

وعرف له زملاؤه فى هذه المعارك روحه الحربية . وشجاعته وذكاءه وقدرته على العمل ، ولكن الثائرين لم يلبثوا أن ألقوا السلاح إلى حين . . إجابة لرغبة الملوك والحكام الذين فرضوا الصلح على مجاهدى فلسطين لحساب بريطانيا . وأوقفوا الثورة بعد أن بلغت غايتها من القوة .

وأسره الإنجليز ،ولكنه استطاع أن يفر من أيديهم وهو جريح حيث سافر إلى بغداد ودمشق وظل يعمل على تدريب المجاهدين حتى عام ١٩٣٨ حيث عاد إلى فلسطين وراح يهاجم مستعمرات اليهود ويناضل فى معارك متعددة .

وكانت الأمم المتحدة قد أصدرت عام ١٩٣٧ قراراً بتقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية . فكان عبدالقادر الحسينى أول الثائرين على هذا القرار ،وعمل عبدالقادر بقوة وراح يكيل الضربات لليهود، واستطاع أن يعزل مستعمراتهم بعضها عن بعض، ويدمر بعضها الآخر، وينسف عدداً من معاقلهم .

وبينما كان يقود فصيلة من المجاهدين فى جبل الجليل، وقد اتخذ من قرية بنى نعيم مقراً للقيادة، أرسل إليه الإنجليز قوة كبيرة من الجنود أحاطت بوكره واستمرت المعركة ثلاثة أيام

استطاع الإنجليز خلالها أن يعزلوه ويمنعوا عنه النجدات والذخيرة ، وفى مساء اليوم الثالث هجم الإنجليز على معقله ، فسقط عبد القادر صريعاً بعد أن اخترقت رصاصة قاتلة رئته اليمنى . وسقط إلى جواره عشرات من فتيان العرب ، ولما فتش قائد الحملة جثمان عبد القادر ظن أنه مات فأذاع الخبر . وجمع الشهداء وعبد القادر من بينهم غير أن الأنين رجع إليه بعد ثلاثة أيام ونقل إلى المستشفى .

ولكنه ما كاد يعى نفسه حتى هرب على ظهر جمل إلى دمشق .

وعند ما رأى زوجته قال : آسف ؛ لم أنل هذه المرة شرف الاستشهاد .

ثم عاد إلى فلسطين ليستأنف جهاده .

وفى عام ١٩٤١ حمل روحه على كفه ليحارب معركة المصير فى العراق ، واستطاع أن يؤخر دخول الإنجليز إلى بغداد عشرة أيام كاملة . فقد حاربهم فى معركة (صدر أبى غريب) عند ضواحى بغداد ليفسح الوقت لرشيد الكيلانى ورجاله فى الاستعداد لمقاومة القوات الزاحفة .

وفى خلال هذه الفترة حتى عام ١٩٤٥ ظل مبعداً عن وطنه فى السعودية وغيرها من البلاد العربية حتى قدم القاهرة وألف بها جيش الجهاد المقدس ونظم الكتائب السرية .

وفى عام ١٩٤٦ أصدر أمره إلى رجاله بدخول فلسطين ،

فتألفت جماعات ثلاث حملت أسماء: الحرية، والثأر، والقوة .

وكان أول من دخل فلسطين فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ بعد صدور قرار التقسيم فجعل مركز قيادته العامة فى بلدة «بئر زيت» من قضاء رام الله لقربها من القدس، وتمكن من تطويق العاصمة المقدسة ودارت بينه وبين الإنجليز واليهود معارك متعددة .

وطلب اليهود جعل القدس : منطقة مفتوحة ورفض عبدالقادر، وحين بدأت ذخيرته تنفد، أحس بالخطر ، وذهب إلى اللجنة العسكرية بدمشق يطلب الإمدادات ولم يكن لدى اللجنة أى سلاح ثقيل، وأعطوه خمسين بندقية .

وسقطت « القسطل » فى أيدى اليهود وزلزل الحادث كيانه فاستقال من القيادة ولكنهم طالبوه بأن يعود . فقرر العودة كجندى صغير ، ومضى يهاجم القسطل بسلاحه الضئيل وإيمانه الكبير ، خاض المعركة بقميصه ودمه بدون سلاح .

كانت خطته هى محاصرة القدس والمستعمرات اليهودية وقطع التموين والماء عنها وضرب القوافل القادمة عليها ، ونجح فى هذه الخطة . . ولكن معركة القسطل كانت بالنسبة له كل شىء .

قال : لا يمكننى استرجاع القسطل بالبنادق الإيطالية والذخائر القديمة التى أحضرتها من مصر .

وبينما كانوا يهتفون بسقوط الحصن . كان يجود بآخر أنفاسه مستشهداً، لقد آن له أن يحقق أمله فى الشهادة .

لقد قتله الخلاف بين العسكريين والسياسيين بين مؤامرات

الاستعمار وتعدد القيادات .

مات فى قلب المعركة محارباً لليهود والإنجليز ، وكان يبغضهما . مات وفيـًّا صادق الوفاء لوطنه الذى أحبه . مات وهو فى الأربع والثلاثين ربيعاً ملىء القلب بالإيمان والصدق .

أراد أن يموت حتى لا ترى عيناه عدوه وهو يسيطر على بلده ، وكانت تلك إحدى أمانيه .

استشهد عبد القادر الحسينى فى ٨ أبريل ١٩٤٨ وخلف ذكراً عاطراً واسماً لامعاً .

الفهرس

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٤